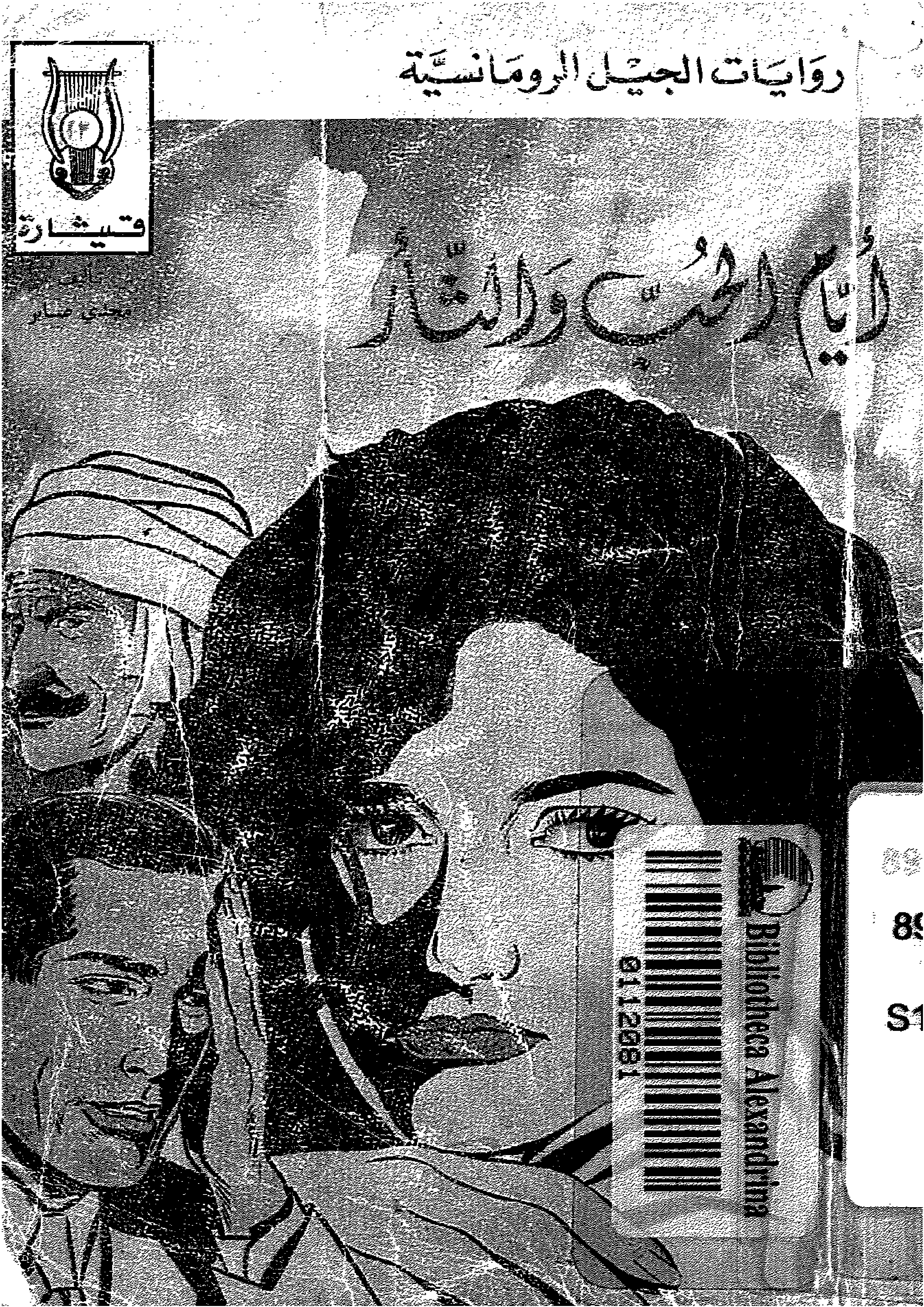
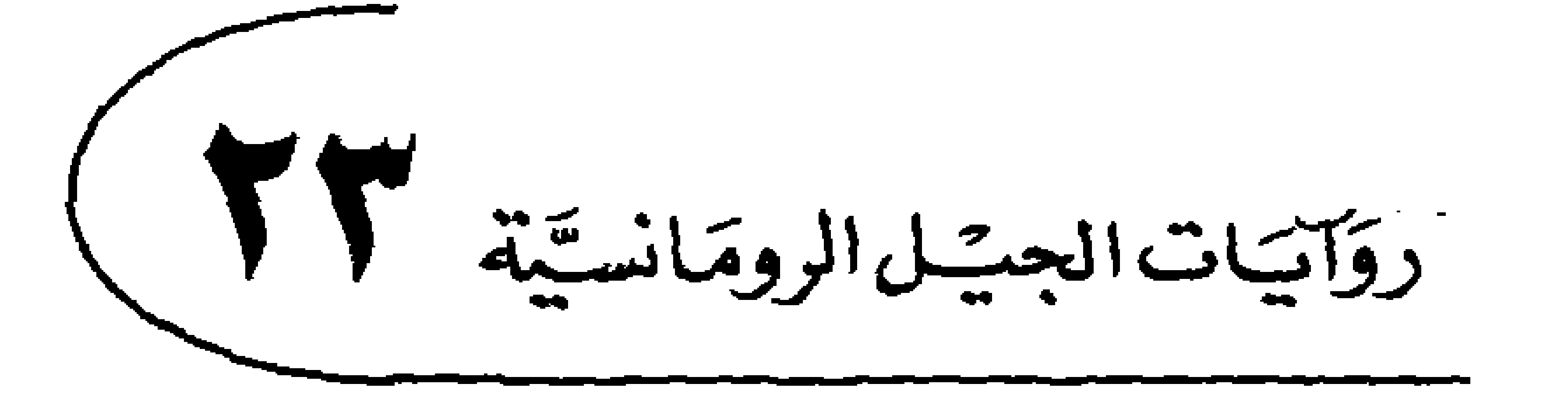
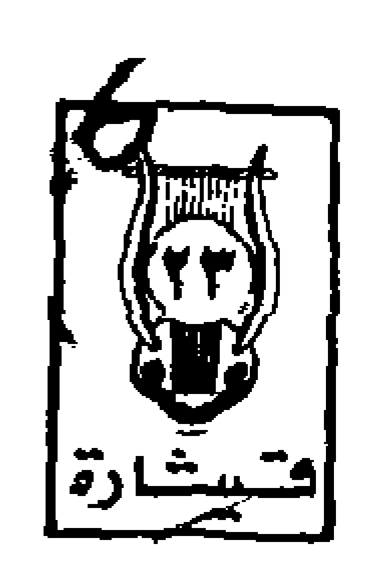


روايات الجيل الرومانسية
قيثارة
تأليف
مجدي صابر
أيام الحب والثأر
Bibliotheca Alexandrina
0112081





أيام الحب والثأر

تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعَة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

أحلام الحب

شخصت العيون في لهفة إلى لوحة النتائج المعلقة فوق الجدار العريض.. وقفزت عينا «همّام» فوق سطور الأسماء.. في لهفة بأنفاس متسارعة.. وأخيراً استقر بصره على اسمه الثلاثي «همام شلبي عبد الغفار» وصرخ في فرحة طاغية عندما استقرت عيناه على رقم المجموع.. واحد وتسعون بالمائة.

لم ينتظر كلمة تهنئة أو مباركة من زملائه المحتشدين حوله.. لم ينتبه حتى لنظرات الحسد في عيونهم..

أخيراً تحقق الحلم وحصل في الثانوية العامة على المجموع الذي تمناه. سيصير طبيباً.. سيحمل منذ تلك اللحظة لقب «دكتور» ليتباهى به بين أقرانه وسكان قريته الصغيرة الوادعة.. التي لم يسبق لأحد أبنائها أن فاز بنفس اللقب.

سيحقق حلم أبيه.. وأمه..

أبيه الذي يقتطع من طعامه لأجل دروسه وكتبه..

أبيه الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً عدا وظيفة قليلة الشأن كغفير لدوار العمدة الكبير الحافل بكل أطايب الحياة ولذائذها.. فكأنه الحارس لكي لا تمتد يد أو عين إلى تلك الأطايب.. ولو كانت يده أو عينه هو!

سيصير ابن الغفير «شلبي عبد الغفار» طبيباً.. ولحظتها سيشعر أنه يسدد دين أبيه ويرد له ولو بعض جميله.. لن يناديه أحد بعدها إلا بوالد الطبيب.. لن يكون فقر أبيه ورقّة حاله داعياً بعد الآن لأن ينظر إليه الناس بعين الاستهانة وقلة الشأن.. ولن يعاملوه بعدها إلا بما يليق بوالد الطبيب.. حتى العمدة فشل ابنه في دراسته.. واستحال عليه أن يحمل هذا اللقب ولو أنفق كل ثروة أبيه.

أقسم له والده أنه سيقتطع من لحمه لينفق عليه إذا حصل على مجموع يؤهله لكلية الطب..

وأقسم هو لأبيه أنه سيحقق حلمه مهما بذل من جهد.

وأقسم لـ « قمر » أيضا . .

« قمر » . . وآه من « قمر » . . وتصاعدت دماؤه الى رأسه غزيرة محتقنة لمجرد تذكر الاسم . واندفع يجري بكل سرعته صوب جسر القرية وقد بدت هامات حقول الذرة الشامية من بعيد والرياح تعبث بها، كأنها رايات الغار والنصر انشقَّ عنها باطن الأرض لتلوح له مهنئة، وهو بقامته الرياضية يبدو كما لو كان قائداً عائداً من غزوة مظفرة .

كان يريد أن تكون « قمر » هي أول من تعرف النبأ . . وأن حلمهما يوشك أن يتحقق . . « قمر » . . ابنة العمدة وأخت « عمران » الصغرى . . جميلة جميلات القرية . . فاتنتها التي لم تر قريتهم لها مثيلاً . . يقسم عواجيز القرية أن العين لم تقع على من هي أجمل من « قمر » أبداً . . يؤكدون أنها من نسل الفراعنة . . الذين عاشوا في نفس القرية في حدود زمام محافظة « المنيا » قبل آلاف السنين .

جمالها صاعق لمن يراها أول مرة فلا يستطيع أن يحيد بصره عنها إلا بمشقة . . كأنها اكتنزت كل ملامح نساء أولئك الأجداد العباقرة . . الذين خلفوا وراءهم من الأسرار ما حيَّر

العالم كله.. بالرغم من أنها لم تكمل السادسة عشرة إلا منذ أيام قليلة.

يقولون إنها أحد أسرار تلك القرية دون شك.. بالرغم من أن أمها لم تكن ملحوظة الجمال، ولا أبوها كذلك.

«قمر» التي تحسدها كل نساء القرية، وتسعى الحوامل لنظرة إليها.. عسى أن يأتي المولود يحمل بعض الشبه منها.

«قمر» التي كان يتمنى كل شبان القرية نظرة واحدة من عينيها الواسعتين السوداوين الكحيلتين بلا كحل مثل ليل حافل بأسرار لا يجوز انتهاكه..

«قمر» التي كان الجميع يخشون حتى من مجرد الاقتراب منها..

يخشون نفوذ أبيها.. وسطوة أخيها «عمران» الذي لا يكبرها الا بعامين فقط، يخشون بطش المال وقوة الأرض ونفوذ أصحاب السلطة وسطوة الرصاص ورائحة البارود والبنادق التي تصيب أهدافها في مقتل وسط ذراعات القصب والذرة ليلاً.. لتترك أجساداً بلا أرواح.. وبلا شهود.

تمتد جذور «قمر» إلى أجداد كان الواحد منهم قادراً على

غلق محافظة بأكملها ومنع قوات الشرطة من الدخول إليها لسطوة رجاله ووحشيتهم. وكان العمدة والد «قمر» أقلهم لجوءاً الى سلاح البطش.. وأكثرهم حكمة وتعقلاً.. وإن كانت غزوات «عمران» توحي بأنه سيعيد يوماً ما كان لأجداده، وأنه ما من إنسان سيكون قادراً على الوقوف في وجهه.. يقولون إن نسل العمدة يمتد إلى قائد فرعوني لم تعد الذاكرة تحتفظ باسمه.

واصل «همَّام» الجري لاهثاً.. وهو يشعر وكأنما نبت له جناحان يرفعانه فوق العالم كله.. كان لا يزال حتى تلك اللحظة يتساءل، لماذا اختار قلبه «قمر» وحدها؟

بل لماذا اختارته «قمر» وحده دون كل شبان القرية؟

كانت عيناها رسول الغرام بينهما.. وتوحي نظرتها بأنها تمتلك كل أسرار النساء في العالم..

تختزنها في قلبها وما بين عينيها.. يخفي جمالها الصاعق عقلاً فواراً وذكاء لا حد له.

لم يفكر لحظتها أن ثمة فوارق بينهما.. هي ابنة العمدة أثرى أثرياء القرية.. وصاحب القانون الذي لا يحيد عنه إنسان..

وهو ابن الغفير الفقير العامل في دوار العمدة. أقرب ما يكون إلى الخادم الخاص.. الذي يقسم كل لحظة أن لحم كتفيه من خير صاحب الدوار وكبير القرية.

والده الذي لا يجد ثمن الدواء لما أصاب عينيه من غشاوة تمنعه من الرؤية إلا ضبابا في عز النهار.

ولكن «همَّام» لم يفكر بعقله أبداً..

في مسائل الحب يتعطل العقل، ويتسيد القلب. يصير هو الآمر الناهي.. صاحب الكلمة الأولى والأخيرة ولا يقبل اعتراضاً ولا استئنافاً لأحكامه.

لم تكن لـ «همَّام» حيلة في أن يقع صريع نظرة «قمر» واختيارها.. وكأنها كأبيها لا رادَّ لإرادتهما.

ولكن العجب.. كل العجب أن تهمس له قمر بإعجابها به وأن تبدأ له الاعتراف بذلك.. أن تختلس الفرصة والثواني ليتلاقيا بعيداً عن العيون بمبادرة منها، ولو توقف الأمر عليه وحده لانقضى عمره دون أن يجرؤ على ذلك!

وفي لقاءاتهما كانا يتركان اللحظة للصمت الطويل، لتبث

العيون حديثها الشجي المتلهف.. لتتلامس الأصابع في همس بريء..

آخر مرة قال لها: أخشى أن يختطفك مني رجل آخر..

همست تقول له: عدني أن تحصل على الثانوية العامة بمجموع يؤهلك لدخول كلية الطب.. فأعدك ألا أكون زوجة لرجل آخر غيرك.

قال لها وخاطر خفي يعذبه: أخشى من أبيك إذا علم بأمرنا، وأنا وأبي لا حول لنا ولا قوة.

قالت تشجعه:

ـ سيكون حبنا في العلن.. ما أن تخطو إلى كلية الطب حتى تأتي إلى أبي طالباً يدي.

ارتعب لمجرد الخاطر وقال:

ـ أخشى ألا يذكر أبوك سوى أنني ابن الغفير الفقير الذي يعمل لديه، ويعتبر الأمر إهانة له.

أجابته «قمر» في تعقل:

ـ لم يكن جدي الأكبر سوى مزارع فقير أجير.. ولولا ثروة

مفاجئة أصابته في نهاية عمره، لما كان حال أبي يختلف كثيراً عن حال أبيك.

وضمت كفيه الخشنتين إلى كفيها الرطبتين هامسة: سأتمسك بك.. ووالدي لا يرفض لي طلباً أيضاً.

وبدت له لحظتها بعينيها الواسعتين الكحيلتين وأنفها الشامخ وحاجبيها المقوسين في ترفع، كأنها ملكة فرعونية قديمة اعتادت أن تأمر فتطاع..

كانت أقرب في الشبه الى كليوباترا.. التي حيرت أعتى الرجال في عصرها، وأذابتهم في حبها.

اندفع يجري وأنفاسه تلهث دون توقف.. لا يجرؤ على تأجيل إعلان خبر فوزه ولو لثانية واحدة.

كان يريد أن يزف إليها النبأ.. أن يثبت لها صدق مشاعره.. أن يؤكد لها أنه كافح لأجلها وهو على استعداد لأن يقتحم كل مصاعب العالم ويهزمها.

تجاوز المستشفى الحكومي الصغير، واندفع مخترقاً حقول الذرة.. اقترب من شاطئ الترعة وشجرة الصفصاف التي اعتادا اللقاء عندها شرق القرية.

صرخ من السعادة عندما وقع بصره عليها..

كانت تنتظره تحت الشجرة دون موعد سابق.. وضفيرتها السوداء الطويلة تنتفض قلقاً في انتظار المجهول.

وكأنه «انطونيو» عائداً إليها بنبأ انتصاره العظيم، وتتويجهما ملكين على كل بقاع الأرض.

صرخ بفرحة طفولية: «قمر».. لقد نجحت بتفوق.. سأدخل كلية الطب.

شاهدها ترتعد.. ترتجف.. توشك على التهاوي لشدة فرحتها.

رأى عينيها تتسعان على آخرهما.. ورموشها السوداء مشرعة كالحراب، وأنفاسها تتهدج معلنة عن فرحة تملأ الكون من حولها. ترتجف شفتاها الورديتان.. وتتصاعد أنفاسها برائحة العطر الذي يوشك أن يذهب بعقله.

شاهد دمعتين تترقرقان في عينيها.. وكأنهما لؤلؤتان تسبحان في بحار مسحورة لا قرار لها، ويستحيل لإنسان أن يلج إلى عالمها.

غمغم ذاهلاً: أتبكين؟

همست خجلة من فرحتها: أبكي لشدة سروري.

واصل بنفس الذهول:

ـ ألهذه الدرجة تتمسكين بي؟

اعترفت في بساطة:

ـ أنت اليوم جعلت أحلامنا دانية قريبة أكثر من أي يوم آخر.

ابتلع لعابه وهو يسألها:

ـ ألهذه الدرجة تحبينني؟

همست في صدق من لا يخشى الاعتراف:

ـ وعدتك ألا يكون في حياتي غيرك.. وها هي ذي دموعي تثبت لك صدق وعدي.

فاضت مشاعره، لم تعد به قدرة على الاحتمال فصاح متألماً:

ـ آه أيتها الحبيبة.. إنني أشعر وكأنني في حلم أخشى أن أستيقظ منه على واقع مؤلم.. لكثرة ما امتلأ قلبي بحبك، لم

أعد دارياً ما أفعل في اللحظة التالية، وكأنني أتمنى أن يتوقف عمري كله عند هذه اللحظة ولا يغادرها أبداً.

مسحت «قمر» دموعها بكفيها، فأثارت عيناها ابتسامة متألقة وقالت: لن نسمح لأنفسنا بالتوقف قبل أن تصير أحلامنا حقيقة، وأول ما نقوله الآن أن نذهب إلى أبيك لنخبره بنجاحك.. وبعدها نذهب لأبي.

ذاهلاً تساءل: هل نذهب لأبيك معاً؟

قالت بحسم: نعم.. ومنذ هذه اللحظة لم يعد هناك ما نخفيه.. سنعلن حبنا على الملأ.. حباً طاهراً بريئاً نقياً، نرغب في صونه بالإشهار والإعلان، انتظاراً لأن يكون لكل منا الحق في امتلاك الآخر، وعدم الوصاية من الآخرين، بعد أن تقطع شوطاً في دراستك بكلية الطب ويتأكد الحلم.

تطلع إليها «همَّام» وقد انعقد لسانه.. كان يعرف أنها جريئة غير هيابة.. ولكنه لم يدر أن جرأتها يمكن أن تمتد إلى هذا الحد. لا يعرف من أين تستمد هذه الشجاعة.. من تلك

العينين اللتين تشكلتا قبل آلاف السنين.. أم سطوة أبيها وماله التي رضعتها منذ طفولتها، فصارت تشكل جزءاً لا ينفصل عن عالمها.

غمغم في قلق وتردد وهو يتحسس شاربه الخفيف الذي نبت قبل شهور قليلة: ولكن..

قاطعته «قمر» في إصرار لا يعرف اليأس ولا التردد: إن لم تأت معي حالاً.. فسينصرف كل منا إلى طريق مختلف.. إلى الأبد.. فما هو اختيارك؟

* * *

الدم بالدم

رجَّته كلماتها.. زلزلته.. أخافته.. انعقد لسانه أكثر.. لم يدر ما يقوله.. لم يتعود تلك الجرأة ولا الحسم الباتر..

في لحظة تتخذ «قمر» قرارها.. وأبوه قد اعتاد أن يؤجل ما يريد لسنوات، برصيد لا ينفذ من الصبر.

خشي أن ينفذ ما تريد.. فيكون الثمن قاسياً مؤلماً.. فضيحة له ولوالده مطروداً من عمله، وربما من القرية كلها.

وخشي ألا ينفذ رغبتها.. فيكون الثمن أقسى وأشد إيلاماً.. ويقضي عمره نادماً على ما أضاعه.

وأنقذه من حيرته صرخة مريعة ملتاعة انطلقت على مسافة قريبة. واستدار في ذهول فشاهد «عويس» الغفير في جنون وقد تلوثت ملابسه بالوحل وهو يصرخ في لوعة: لقد قتل

العمدة.. قتل العمدة.. أطلق عليه الغفير «شلبي» الرصاص فقتله.

لم يع «همَّام» العبارة للحظة الأولى.. كأن عقله أصابه شلل.

كان الأمر مستحيلاً.. أقرب إلى الجنون.. كأنه كابوس.

وصرخت «قمر» في الغفير «عويس»: ماذا تقول أيها المجنون؟

أجابها وهو ينتحب ويلطم خديه بكفيه كالنساء: حاول أحد اللصوص الغرباء سرقة دوار العمدة، فطارده والدك ومعه الغفير «شلبي» وسط الحقول منذ دقائق، وأطلق «شلبي» الرصاص على اللص ولكنه أخطأه وأصاب والدك في مقتل، فحملناه إلى داره، وأمرني «عمران» أن أسرع إلى المستشفى لإحضار طبيب.

صرخت «قمر» في جنون، صارت كوحش أصابته طلقة غادرة.. تمزقت.. تبعثرت.. صارت أنفاسها تفح ناراً.. تتفجر كبركان يقذف بالحمم.

كأنها «إيزيس»، التي بعثروا جثة زوجها إلى ألف قطعة، ألقوا كل قطعة في اتجاه.. صرخت في لوعة: أبي.

اندفعت تجري في جنون صوب منزل أبيها..

تنبه «عويس» إلى وجود «همَّام»، صرخ فيه في هلع، ماذا تفعل هنا أيها التعس.. أسرع بالهرب والنجاة بحياتك، فقد أقسم «عمران» ابن العمدة على قتلك انتقاماً وثأراً لأبيه القتيل.. وقال إن دم أبيك لا يساوي قطرة من دماء أبيه لكي يهدره ثمناً له.

غمغم «همَّام» في رعب وارتعاد:

- وأبي.. أين هو؟

أجابه «عويس» نادباً:

- إنه بداخل دوار العمدة وقد قبض عليه بقية الغفر.. وقد أرسلوا في استدعاء الشرطة.

شلت قدما «همَّام» وأحس بيد قاسية تقبض على قلبه وأنفاسه.. انتابته رغبتان متصارعتان.. كل منهما تمتلك قوة لا تقاوم.

أن يذهب لرؤية أبيه.. ويقف إلى جواره في محنته.. أن يثبت براءته مهما كان الحظ المحدق به.

ورغبة أخرى في أن يلوذ بالفرار وينجو بحياته.

كان الخوف لا يزال ضبابيا غير محدد الملامح في عقله.. ولكن صورة والده الطيب المريض العليل البصر، كانت حاضرة أمام عينيه تبكي وتتوسل وتطلب الرحمة ودون وعي اندفع «همَّام» إلى دوار العمدة.

كان جسد العمدة مسجى في المدخل فوق أريكة عريضة بلا حراك، والنساء يلطمن ويعفرن رؤوسهن بالتراب والطين حوله، و«قمر» تهز الجسد الميت صارخة في جنون ودموعها تسيل أنهاراً..

وكان والده راقداً في الجانب الآخر كفأر مذعور أحكمت عليه المصيدة.. وكف «عمران» تنهال عليه لطماً وقدمه تمزق كرامة الغفير العجوز وتدسها في الطين..

اندفع «همَّام» إلى أبيه يحتضنه ويتلقف عنه اللطمات والركلات صارخاً: أبي..

وتلقف «شلبي» ابنه بين ذراعيه والدماء تغطي وجهه، وتنهنه باكياً: لم أكن أقصد قتله.. أقسم على ذلك.. كيف أقتله ولحم كتفي من خيره.. ولولاه ما أكملت أنت تعليمك يا ولدي، ولا توفر لي حتى ثمن طعامك وشرابك وكتبك.

صـرخ «عـمـران» في «همَّام»: لقـد جـئت إلى نهـايتك بقدميك أيها التعس.. العين بالعين.. الدم بالدم..

وتلاقى بصراهما..

تراقصت في عيني «عمران» دماء ملتهبة وكراهية ورغبة في الانتقام.

كـأنه ينتـقم لفـشله.. لإحـسـاسـه بالعـجـز وقـد كـان «همَّام» صديقه وزميله الأثير فوق مقعد دراسة واحد..

ولكن المال والفشل فرقا بينهما.. فصارت الصداقة إحساساً بالفشـل والعجز، ولـم يسـتطع المـال الوفيـر إزاحة ذلك الشـعور أبداً.. وقد حانت لحظة الانتقام الذي خطط له القدر ببراعة..

وقبل أن يسـدد «عـمـران» بندقيتـه إلى صـدر «همَّام» اندفع رجال الشرطة إلى المكان..

توقف أصبع «عـمران» فوق الزناد.. لـم يشـأ أن يكـون ثمن الرصاصة عمره كله.. يمكنه أن يطلقـها بلا شـهود.. وأكـدت نظراته الدموية أنه لن يترك ثأره أبداً.. ولو بعد ألف عام.

ومات والد «همَّام» أثناء التحقيق معه.

مات بسكتة قلبية وهو يقسم أن الرصاصة طاشت منه بسبب ضعف بصره.

ودفن «همَّام» والده..

خشي سكان القرية جميعها من أن يسيروا خلف نعش الغفير الطيب.. وعيون «عمران» ورجاله تترصد من يخالف إرادته..

سار «همَّام» ووالدته خلف النعش وحدهما تحت حماية الشرطة. وعندما عادا قالت والدته له: لم يعد لك بقاء في هذا المكان يا ولدي.. فسيترصدك «عمران» ورجاله وسيقتلونك دون رحمة.. فغادر القرية في الليل إلى العاصمة.. وهناك لن يتعرف عليك أحد أو تطولك يد «عمران» ورجاله.

كان يدرك أن ذلك هو الحل الوحيد للهروب من «عمران»، فابتلع لعابه وقال:

ـ وأنت يا أمي.. هل أتركك وحدك؟

مسحت دموعها بغطاء رأسها الأسود وقالت:

ـ لا تخشَ علي يا ولدي.. فلا أحد يأخذ الثأر من امرأة.

غمغم في ذهول: ولكن..

أدركت أمه ما يجول في خاطره.. مسحت دموعها قائلة انس «قمر» يا ولدي.. إنها لم تعد لك الآن.. ولا كانت لك من قبل، إنسها يا ولدي.. فبعد أن تلطخت يدا والدك بدماء أبيها.. لن تغسل الدماء إلا بدماء مثلها.

أخفى «همَّام» وجهه بين كفيه.. كانت الجراح أقسى من أن يحتملها قلبه الغض.. انشطر قلبه نصفين.. نصف تمزق لموت أبيه.. وآخر طحنه القدر وهو يسلب منه «قمر» رغماً عنه.

لم يكن يشك بالنسبة له في استحالة أن تكون «قمر» له بعد الآن.. صار بينهما جدار أو حاجز من الخوف والدماء والثأر.

وفي المساء تسلل مثل لص ليغادر قريته..

اخترق زراعات الذرة والقصب العالية محتمياً بها.. ولمح على البعد أضواء محطة القطار.. كأنها طوق النجاة له.. كأنها السبيل الوحيد لاستمرار الحياة.

اندفع نحـــوها بلا وعي ليلحق بآخـــر قطار يوشك على مغادرتها.

فجأة أوقفته صرخة من الخلف جمدته وشلت أطرافه..

استدار في ذهول فوجد «عمران» وقد برز له متلثماً من وسط زراعات القصب العالية، وحوله قلة من رجاله، مصوباً بندقيته إلى صدره.

صاح «عمران» في حقد: هل ظننت أنك ستنجو أيها الجبان.. لقد توقعت ذلك فانتظرتك لكي تودع الدنيا أنت أيضاً.

وصاح «همَّام»: إنني بريء.. لا ذنب لي في موت أبيك.. وقد دفع أبي أيضاً الثمن.

احتقنت عينا «عمران» بالدماء وقال:

ـ الدم بالدم.. ولن يدفع غيرك ثمن دم أبي.

وانطلقت الرصاصات القاتلة من بندقية «عمران».. كأنها جحيم الموت يفتح أبوابه لتضم «همَّام» إليه بلا رحمة.

* * *

الهروب

صرخ «همّام» وانتفض جسده بشدة وآلام لا طاقة له بها تمزق جسده.

فتح عينيه وقلبه يدق في فزع وأنفاسه توشك أن تختنق في صدره.. وتنبه لما حوله ووقع بصره على صورته التي عكستها مرآة الدولاب الصغير في ركن الحجرة.. بشعره المجعد الخشن ووجهه الأسمر، وشاربه القصير.. ومعالم الحزن واليأس المرير الساكن في عينيه.

كان راقداً في فراشه وضوء الفجر يغمره من خلال النافذة المفتوحة.

التقط أنفاسه وأغمض عينيه بصعوبة.. كأنه قادم من سباق جري طويل.

كان كابوساً.. نفس الكابوس الذي يقتحم أحلامه

كل ليلة.. فيطعن سكينته ويمزق هدوءه وإحساسه بالأمان.

عشر سنوات مرت وهو يرى نفس الكابوس في أحلامه.. ليال طويلة بلا حصر قضاها ساهراً ليمنع النوم من التسلل إلى عقله.. فيغزوه الكابوس وتمزقه الرصاصات القاتلة.. حقاً لقد تمكن من الهرب من رصاصات «عمران» واختفى في الظلام ولحق بالقطار في اللحظة الأخير هارباً، تاركاً «عمران» ورجاله يطلقون الرصاص في جنون دون أن يلحقوا به.

لقد نجا من رصاصات «عمران».. فلماذا تنتهي أحلامه دائماً بأن تصيبه تلك الرصاصات؟

وشق سكون الليل صوت مؤذن الفجر.. باعثاً شيئاً من السكينة والطمأنينة إلى قلبه.

نهض فاغتسل وارتدى ملابس العمل ثم غادر حجرته الضيقة في طريقه إلى المسجد القريب.. بعد الصلاة لم تكن به رغبة للعودة إلى حجرته.. التي تشبه جحراً ضيقاً خانقاً.. كأنها سجنه الذي اختاره لنفسه ليحتمي فيها من عيون «عمران» ورجاله.. الزنزانة التي أغلق متاريسها حول نفسه بإرادته.

جلس في زاوية المسجد صامتاً: يجتر أحزان عشر سنوات كاملة.

ضاعت أحلامه كلها.. كأنها كانت قبض ريح.. اغتالت يد الثأر كل أمنياته.. لم يجرؤ أن يدخل كلية الطب.. ولا أي كلية أخرى.

أحس أن عيون «عمران» تترصده في أي مكان.. وما كان باستطاعته أيضاً الإنفاق على دراسته وإقامته في «القاهرة» وهو بلا عون أو سند أو مال.

كان عليه أن يجد لنفسه حياة جديدة، فالتحق بعمل بسيط.. حارس أمن في إحدى الشركات مهمته التطلع في وجوه الداخلين والخارجين وتفتيش حقائبهم.

عمل لم يكن يختلف كثيراً عن عمل والده.. وإن صار يحمل لقباً إنيقاً: ضابط أمن!

كأن القدر يعانده.. يبخل عليه بأقل الأشياء.

كان مرتبه يكفيه بالكاد، ويسمح له بأن يبعث لوالدته بجزء منه في حوالة بريدية لتستعين بها على نفقات معيشتها بجانب معاش والده الراحل الضئيل.

عشر سنوات لم تقع عيناه على والدته.. كأنه اجتث جذوره من أرضها.. صار غريباً عنها لا يجرؤ على الدنو من عالمها الحنون مرة أخرى.. ولم يكن غيرها قادراً على التخفيف عنه وتهوين الليالي الطويلة.

وهي من جانبها لم تحاول زيارته أبداً.. كأنها تخشى أن يتعقبها «عمران» ورجاله ليعرفوا عنوانه.. فارتضت أن تحرم منه بإرادتها بدلاً من أن تحرم منه رغماً عنها.

بعث إليها بعنوانه ذات مرة، فاحتفظت بقصاصة العنوان في مكان خفي داخل ذيل جلبابها الأسود الذي لم تخلعه أبداً منذ وفاة أبيه.

وجاءته منها خطابات قليلة على مدار السنين العشر، تعد على أصابع اليد الواحدة. فاجأه خطابها الأول الذي وصله بعد عام كامل.. خطوطه غير واضحة المعالم وحروفه مختلطة بعضها ببعض.

لم يصدق أن والدته كتبته بنفسها.. ولكن كلماتها أخبرته أنها تعلمت القراءة والكتابة من برامج تعليمها في الراديو.. تعلمتها خصيصاً لتتمكن من كتابة خطاباتها إليه.. وأنها

انتهزت غياب «عمران» عن القرية لتبعث بذلك الخطاب إليه من صندوق بريد قرية مجاورة حتى لا تمتد يد «عمران» إليه ويعرف عنوانه.

طمأنته على نفسها وأخبرته أنها مطمئنة عليه ما دامت حوالاته البريدية تصل إليها بانتظام.. يومها بكى.

فاض حنينه كنهر أحزان لا مصب له.. محكوم عليه بالجريان الأبدي إلى حيث لا مستقر له.. بكى حنيناً لأمه.. وحزناً على ذاته..

كأن أمه تثبت له بخطابها أنها أكثر منه شجاعة وإرادة وتحدياً للقدر.. لم تستسلم لعجزها وسجن جهلها وروضتهما لإرادتها.. فكانت كأنها تكشف له قدر عجزه وتفاهته واستسلامه لمصيره. وحمل خطابها الأخير تحذيراً له بأن «عمران» تحول إلى وحش مفترس وسط عصابة رجاله.. وأنه ارتكب العديد من الجرائم ولم تستطع الشرطة القبض عليه بسبب خوف سكان القرية من الشهادة ضده ورجاله.

عشر سنوات وهو يعيش بلا حاضر أو مستقبل.. أسيراً للماضي فقط وللأحلام الميتة والكوابيس.

كأن أحداث الماضي قد وقعت بالأمس فقط.. يراها حاضرة إلى ذاكرته متطبعة في وعيه بكل تفاصيلها.. كل ليلة يدعو لوالده طالباً الرحمة له.. والسماح والمغفرة. ولكنه لم يسامح نفسه أبداً.. لأنه اختار الهروب ولم يجرؤ على المواجهة.

صار جباناً أمام نفسه.. لم يكن لديه تبرير لما فعله غير الخوف على حياته.. وما أسوأها حياة قد ارتضاها لنفسه وهو يعيش سجيناً في عمله وحجرته ومشاعره.. لا يجرؤ حتى على الذهاب إلى أي مكان خوفاً من أن تراه عين الثأر، التي لا يدري في أي مكان تفتش عنه.

يعرف أن أهل قريته برغم طيبتهم وبساطتهم، لا يتسامحون في ثأرهم أبداً.. الثأر يعني بالنسبة لهم الكرامة.. تراث قديم عمره آلاف السنين. يكيلون أنفسهم به، ويدفعون حياتهم وأموالهم فداءه. يفضلون الموت وأعناقهم مدلاة تحت حبل المشنقة، عن ترك ثأرهم ووصم حياتهم بالعار.

أشارت عقارب الساعة في يد «همَّام» إلى الثامنة صباحاً.. فغادر المسجد وسار تجاه مكان عمله القريب.. ظل شارداً طوال اليوم.

وقع بصره على سلاحه المدلى من حزام بوسطه.. مسدس صغير سريع الاستخدام. لم يستخدمه مرة واحدة في حياته ولا امتدت يده إليه إلا لتنظيفه.. في أحيان كثيرة كان لا يجرؤ حتى على لمسه.. كأنه يخشى الموت الراقد في فوهته.. كأنه يذكره بما جرى لوالده.

كأنه يخشى أن يكون مصيره كوالده.. يخشى إن هو مس زناد ذلك المسدس حماية لنفسه ودفاعاً عنها، فيكون مصيره الموت أولاً..

كان يريد الهرب.. الهرب من كل الأشياء حوله.. من حياته الأسيرة في قبضة «عمران».. وحريته السجينة في قبضة الخوف والثأر.

الهرب من ذاته التي بات يحتقرها.. وما أقسى احتقار الإنسان لنفسه.

الهرب من «قمر».

«قمر» التي لم تغب عن عينيه لحظة واحدة.. يراها بخياله متجسدة أمامه ألف مرة كل يوم.

عيناها.. ضفيرتها السوداء الحالكة الطويلة.. شفتاها

الورديتان.. جرأتها اللذيذة.. لمسة أصابعها الرطبة الفوارة.. أنفاسها المعطرة.

يستعيد عقله كل يوم ما تبادلاه من أحاديث وكلمات وأحلام.. يرى بعيني خياله لقاءهما الأول.. نظرة العين الصاعقة التي شلته عن التفكير.. الأنفاس اللاهثة المتهدجة.. الكلمات الهامسة المرتعشة لفرط السرور.. انتظارها له تحت الصفصافة في لهفة ليطمئنها بأن مستقبله صار مضموناً.. وأن رجلاً آخر لن يكون لها. ثم صرختها الجنونية.. واحتضانها لجسد أبيها الميت وهي تسفح عليه دموعاً كالنار..

عشر سنوات كاملة وهو غير قادر على الهرب من «قمر».. ولا صورتها.

تحاصره ذكراها كل لحظة.. توشك أن تخنق أنفاسه.. تذكره كل لحظة بهروبه وجبنه.

لطالما تساءل كل يوم.. ترى ماذا قالت «قمر» عنه.. هل اتهمته بالجبن بعد هربه من القرية.. هل غضبت منه؟ هل لامته، هل اعتبرته مسئولاً عما جرى لأبيها وطالبت أخاها بالقصاص منه؟

أم هل تمنت بقاءه. تمنت أن يواجه أخاها.. أن يقنعه بأنه لا ذنب له فيما جرى.. أن يصر على تحقيق وعده لها برغم كل ما جرى؟

وفي النهاية يعزي نفسه ويقنعها أنها سامحته.. وأنه من المستحيل على «قمر» أن تدينه على جريمة لم يرتكبها.. ولكن.. هل غفرت له هربه.. أم أنها أيضاً احتقرته كما احتقر ذاته؟

هل تزوجت بعده؟

كان هذا السؤال يعذبه. يكويه بنار لا تهدأ.. مجرد تخيله أن «قمر» صارت في عصمة رجل آخر.. وأن وعدها له انكسر وتحطم.

هو وحده الملوم.. من المستحيل عليه أن يسامح نفسه أبداً.

وكان الموت على يدي «عمران» أهون من كل ما يلاقيه في تلك اللحظة.

وعاد إلى حجرته كأنه يعود إلى سجنه بإرادته.. ووجد صاحبة المنزل العجوز في انتظاره.. مدت إليه خطابا وهي تقول: جاء ساعي البريد بهذا الخطاب في الصباح وسلمني إياه لأوصله لك.

كان خطاباً من والدته.. خطها المتعثر المرتبك واضح فوق غلافه.. ولا أحد غيرها يبعث إليه بخطاب ما، وهو ميت في نظر الجميع.

راوده إحساس ما بأن محتوى ذلك الخطاب مختلف هذه المرة.. لم يدر سبباً لذلك الإحساس، فأغلق باب حجرته وفض الخطاب بأصابع مرتجفة.. وأصابته سطوره القليلة بطعنة أخرى. قالت له كلمات والدته الواهنة أنها تعاني من قلبها.. وأنها لم تعد قادرة على الحركة إلا قليلاً، وتشعر أنها تدنو إلى نهايتها.. وأن رغبتها الأخيرة أن تراه قبل موتها، بعد أن أخبرها الأطباء أن حياتها صارت مرهونة بأيام معدودة.

سقط الخطاب من يد «همَّام»..

أصابته المفاجأة القاسية بما يشبه الشلل.

تتوقف حواسه دائماً عند أي مفاجأة.. كأنها أيضاً لا تجرؤ على مواجهة القدر، وكأنها اعتادت الهرب.

أخفى وجهه بين كفيه ليمنع نفسه من البكاء.. ها هي ذي أمه توشك أن تودع الحياة ولا أمنية لها غير رؤيته. وهو قابع في مكانه مختفياً مثل فأر مذعور.. يخشى «عمران» والثأر

والموت.. يخشى حتى من الهواء الذي يتنفسه لكي لا يفشي سره.

يخشى من مجرد التفكير في أن يكسر قيوده.. أن يذهب ليرى أمه قبل وفاتها.. أن يوسدها الثرى بذراعيه.. لا بأيدي الغرباء..

يعلم يقيناً أنه إذا ذهب إليها، فهو ذاهب إلى الموت.

لن تتركه رصاصات «عمران» لينتهي حتى من دفن والدته.. قبل أن يشيعه للتراب هو أيضاً.

وطالعته صورة «قمر» من ركن الحجرة وهي ترنو إليه في سخرية واحتقار.. وكأنها تتحداه.. وأصابهَ ذلك الخاطر بجنون، فصرخ: إلى متى أظل هارباً من نفسي.. إلى متى أظل أسير الخوف والثأر؟

وقبضت يده على مسدسه الصغير.. سلاحه الذي لم يفكر في استخدامه أبداً.. وقفزت الفكرة المجنونة إلى وعيه هادرة كالشلال، يستحيل أن يقف إنسان في طريقها.

لسوف يسافر إلى قريته.. إذا شاء القدر لأمه أن تموت..

فستموت بين ذراعيه هو.. لن يحمل جثمانها غيره ولن يوسدها الثرى سواه.

وإذا شاء «عمران» أن يواجهه.. فليتواجها.. رجلاً لرجل.. وسلاحاً أمام سلاح.

لم يعد هناك ما يخشاه بعد تلك اللحظة.. كأنه يولد من جديد.

وغمغم لنفسه وهو قابض على سلاحه بعنف: لو كان الموت هو ثمن مواجهتي لـ«عمران».. فلأمت رجلاً.

* * *

اللقاء

توقف القطار في محطة القرية.. والعجب أنها كانت خالية من المسافرين.. وقد اعتادت أن تكتظ بهم.

وغادر «همَّام» المحطة حاملاً حقيبة ملابسه الصغيرة دون أن تقع عيناه على إنسان.

وألقت أضواء المحطة الخافتة ظلالاً شاحبة على الأشياء وظهرت على البعد رؤوس مساكن القرية الغارقة في الصمت والظلام، التي بدت كأن الأشباح تمرح في جنباتها وتختفي داخل حقول القصب والذرة الناضجة.

تذكر «همَّام» شيئاً في دهشة وهو يغادر المحطة..

كان اليوم هو ذاته الذي غادر فيه قريته منذ عشر سنوات بالضبط.. وأحس كأنما تلك السنوات لم تنقض أبداً.. وكأنها كانت بالأمس فقط..

وخطا يعبر الترعة الكبيرة المارة بقريته من أضيق أماكنها فوق جسر صغير من الخشب، ثم توقف في منتصف الجسر وهو يراقب ذلك الشبح القادم من بعيد المتدثر في السواد.

تحسست يده سلاحه على الفور.. كان على استعداد لأن يدافع عن نفسه.. ولكن ملامح الشخص القادم من بعيد جعلت «همَّام» يتجمد مكانه في ذهول.

كانت هي.. «قمر».

لم يتغير فيها شيء برغم السنوات العشر الفائتة.

عيناها الواسعتان الكحيلتان وأهدابها المشرعة للأمام كالحراب.. شفتاها الورديتان.. ضفيرتها السوداء الطويلة.. وابتسامتها البريئة.

صرخ «همَّام» بلا وعي: «قمر».

واندفع إليها في نفس اللحظة ليتلاقيا في منتصف الطريق.. تلامست أصابعهما في لهفة واشتياق وحنين سنوات فائتة. أحس «همَّام» وكأن السماء المظلمة قد سطعت في نفس اللحظة بأضواء نجوم وشموس بعيدة.. وأن هامات حقول الذرة الناضجة صارت ترقص حوله.

تساءل ذاهلاً وهو لا يكاد يصدق عينيه: كيف عرفت بموعد رجوعي؟

أجابته بفرحة: لقد أخبرتني والدتك بخطابها الذي أرسلته إليك، وتوقعت مجيئك لرؤيتها.. فصرت أنتظرك كل ليلة قريباً في محطة القطار، حتى أسعدني الحظ برؤيتك الليلة.

غمغم في ذهول وهو يتأملها: لم يتغير فيك شيء يا «قمر».. كأن الزمن توقف بالنسبة لك.

تطلعت إليه في حزن وعيناها تستقران فوقه:

ـ لقد توقف بي الزمن بالفعل، لحظة أن غادرت القرية وتركتني وحدي.

قال في صوت مغترب:

ـ لم يتوان أخوك عن إظهار رغبته في قتلي.

أجابته في صدق:

ـ لو أنك بقيت لمنعته من إيذائك مهما كان الثمن.

سألها متوجعاً:

ـ ألست ناقمة أو غاضبة لقتل أبي لأبيك خطأ؟

أجابته في تسامح:

ـ لقد كان خطأ غير مقصود.. وأنت لا ذنب لك فيما حدث.. فكيف طاوعك قلبك على الابتعاد عني كل هذه السنين، دون أن يدفعك الحنين والاشتياق إلي؟

تهدج صوته وهو يقول:

ـ خشيت في لحظة أن تتحول مشاعرك تجاهي، بسبب ما حدث.

هتفت وهي تمنع نفسها من البكاء:

ـ مشاعري نحوك لم تتبدل أبداً.. وقلبي لم يغضب عليك أبداً.. حبي الصادق لك كان من المستحيل أن ينقلب إلى شيء آخر.

تطلع بصره إلى أصابع يديها. كانت خالية من قيود أو ارتباط، لاحظت «قمر» نظراته فقالت عاتبة: هل ظننت أنني قد ارتبطت برجل آخر وخنت وعدي لك؟

أوجعته كلماتها.. فقال حزيناً:

ـ ولكني لم أكن قادراً على تحقيق أحلامنا.. ولن أصير الطبيب الذي تتباهين به.

ولكنها تشبثت بأصابعه بين كفيها قائلة:

ـ لا يهمني ذلك الآن.. لم يعد يهمني شيء آخر سوى أنك عدت لي.

تصاعدت أنفاسه قلقاً وهو يسألها:

ـ و«عمران» أخوك؟

أجابته في تصميم وجرأة غابا عنه طويلاً:

ـ عليه أن يقتلني أولاً قبل أن يمسك بأذى.

أحس «همَّام» بدوامة من السعادة والهناء تلفه.. كأنه يعلو فوق كل آلام الواقع.. يسبح في بحار من الخيال والسحر.. تختفي كل أوجاع السنين الماضية كأنها لم تكن أبداً.

كأن الزمن تجمد به تلك اللحظة.. ولفرط هنائها محت من ذاكرته آلام وعذابات سنوات سابقة، مضت الآن وكأنها لمح البصر.

فجأة علا صوت من وسط زراعات القصب الكثيفة وصارخاً: لقد أتيت إلى حتفك أيها الغبي.

استـدار « هـمَّام » مـأخـوذاً. وشـاهـد « عـمـران » وسط ثلة من رجاله الملثمين شاهرين بنادقهم في وجهه.

كـانـت المفـاجـأة مـبـاغـتـة حـتـى أن « همَّام » لم يـقـدر على النطق.. وتقدم « عمران » نحوه ويده قابضة على بندقيته قائلاً في سـخـرية: عندمـا لاحظت أن « قـمـر » تذهـب كل ليلة إلى محطة القطار، توقعت أنها تنتظر عودتك لأنها لم تنسك كل السنين الماضـيـة.. فـانتظرتك أيضـاً، وها نحن أولاء قد تلاقينا بعد كل هذه السنين لآخذ بثأر أبي.

قـفزت « قـمر » في طريق أخيها صارخة: عليك أن تقتلني أولاً قبل أن تمس « همَّام » بأذى.

التهبت عينا « عمران » وصارتا بلون الدماء، وهوى بصفعة قاسية فوق وجه « قمر »، فتهاوت على الأرض.

وصرخ « همَّام » منادياً « قمر » واندفع نحوها.. ولكنه توقف في منتـصف الطريق، عندمـا دوت أصـوات رصـاصـات مـزقت سكون الليل واستقرت في صدره.. فتفجرت الدماء لتغرقه.

وصرخت « قمر » بفزع: « همَّام ».

ومـدت يدها إليـه في توسل.. كـأنهـا تطلب منه عـدم

الرحيل.. أن يتشبث بأهداب الحياة لأجلها.. ألا يغيب عنها مرة أخرى.

ومد «همَّام» أصابعه إليها.. وتشابكت الأصابع بقوة، قبل أن تهمد حركة «همَّام» ويستقر جسده فوق الأرض بلا حراك، وضحكة «عمران» الوحشية يتردد صداها في كل الأنحاء.

* * *

العودة

انتفضت ذراع «همَّام» وعيناه مغمضتان لا يقدر على فتحهما.. كأنه يقاوم الموت ويتشبث بأي شيء يبقيه على قيد الحياة.

كان ثمة صوت رتيب يخترق أذنيه ويبدو كأنما يأتيه من عالم مجهول بعيد.. وثمة شيء ثقيل يقبض أنفاسه ويرزح على قلبه وحواسه..

استطاع التحكم في إرادته أخيراً، وهو يشعر بلهب حارق مكان الرصاصات التي مزقت صدره.

فتح عينيه وهو يلهث كالمحموم ويتمتم بكلمات مختلطة مشوشة.

أذهلته الصورة التي باغتت عينيه واستقرت في وعيه.. بدت وكأنها خيال يستحيل التصديق.

كان جالساً في مقعده بالقطار.. الذي لم يصل إلى قريته بعد!

كل ما جرى له قبل لحظة كان كابوساً داهمه في غفوته القصيرة. لا يزال حياً ليس به سوء أو خدش واحد. وصوت احتكاك عجلات القطار الرتيب يعتصر ذهنه بقوة مسبباً له صداعاً لا يحتمل.

أخفى وجهه بين كفيه بحثاً عن الراحة، وهرباً من عيون بعض المسافرين الذين أخذوا ينظرون إليه في إشفاق، وهو يشعر كأن بوادر حمى توشك أن تلقيه في أتونها.

مر الوقت بطيئاً.. ولاحت قريته من بعيد راقدة في حضن الليل. أبطأ القطار من سرعته حتى توقف تماماً.

تحرك «همَّام» ليغادر مقعده وآثار الكابوس لا تزال قابضة على مشاعره.

لمح عدداً من سكان القرية على الرصيف يستعدون لركوب القطار.. أغلب وجوههم لا تزال محفورة في ذاكرته، وقد زادهم الزمن تجهماً وحفر خطوطه فوق ملامحهم ولكنهم لم يتعرفوا عليه. تغيّرت ملامحه كثيراً عن ذلك الشاب المراهق الذي غادر قريته قبل عشر سنوات، وهو يخطو إلى أعتاب الرجولة.

نما شارباه وخشنت ملامحه وزادت سمرتها. واكتسى وجهه بقناع قاسٍ صلب حفرته سنوات الغربة واليأس.

التقط «همَّام» حقيبته وسار بين الواقفين على المحطة متظاهراً بعدم معرفتهم وهو يحمد الله أنهم لم يتعرفوا عليه.. وأدهشه أن وجد عدداً من رجال الشرطة فوق رصيف المحطة وهم يتمعنون في القادمين والذاهبين، دون أن يحاول أحدهم اعتراضه وسؤاله، فحمد الله.. وغادر المحطة والزحام.. ولكن شخصاً كان قادماً في الاتجاه المضاد.. حدق فيه لحظة ثم اندفع نحوه صائحاً: «همَّام» ابن المرحوم «شلبي»؟

بوغت «همَّام».. توقف. كان لا يريد إعلان وجوده ورفع بصره ليواجه من يناديه. واندفع الغفير «عويس» نحوه واحتضنه بقوة وفرحة صائحاً: حمدا لله على سلامتك يا «همَّام».. ظننت أنني سأموت قبل أن تقع عيناي عليك ثانية.

ـ كيف حالك يا «عويس»؟

ـ كما ترى.. ذهبت أيام العز والراحة والهيبة بعد موت العمدة وإلغاء الحكومة للمنصب.. فعدت أجيراً أعمل في أرض الغير نظير أجر يومي.. واختلط الحابل بالنابل

في القـرية التي لـم يعـد فيـهـا كـبيـر.

وتفرس في وجـه « همَّام » مـتسـائلاً: وأنت كـيف حـالك..؟ لقد تغيرت كثيراً عن ذي قبل وصرت رجلاً بحق.

لـم ينطق « هـمَّام » بحـرف.. تضـاربـت بداخله مـشـاعـر مختلطة، فضاقت عينا « عويس » وهو يسأله:

- ما الذي عاد بك إلى القرية ثانية؟

قبل أن ينطق « همَّام » بحرف، ظهـرت أضواء القطار القادم في اتجاه « القـاهرة » وهو يطلق صـفـارته، وكـأنه يوجـه نـداء لمن ينتظرونـه، بأن أوان الرحـيـل قـد حان، فامتدت يـدا « عويـس » الخشـنتـان المشـققتـان مصـافحـاً « همَّام » بغتـة وهـو يقـول لـه: إننـي مضطر للانصراف الآن، لأننـي ذاهـب في مـشـوار عـاجـل الى « القـاهـرة » عسى أن أتمكن من الحصول على عقـد عمل في الخليج وسأعود بعد يومين أو ثلاثة فلا تسافر قبل أن أراك ثانية.

والتـقـط « عـويس » ذيل جلبـابه بين أسنانه واندفع نحـو المحطة.. فالتقط « همَّام » أنفاسه في ارتياح.. فقد تأجل إعلان وجوده بالقرية ليومين على الأقل.

ولمح شرطيين آخرين فوق جوادين وهما يطوفان بأنحاء القرية

على مسافة منه.. ولكن الظلام ستره عنهما، واختار طريقاً مختصراً يمر بين زراعات القصب والذرة ليصل إلى منزله.. ولكنه توقف حائراً بعد خطوات قليلة.. اختفت أكثر الحقول وحلت محلها منازل وبنايات من الأسمنت والطوب الأحمر..

وامتدت بينها شوارع وطرقات ترابية، وبعض أعمدة الإنارة التي احترقت معظم مصابيحها. لم يكن من شك أن ثمة تغييرات كثيرة قد لحقت بالقرية خلال سنوات غيابه.. اغترب أكثر أبنائها وعادوا محملين بالمال، فاقتلعوا الزرع والطين الحي، وصبوا مكانه أعمدة خرسانية ومنازل وطرقات وأعمدة إضاءة.

كان والده يحلم بأن يستصلح تلك الأرض الصخرية والبور في أطراف القرية جهة الجبل الغربية لينبت في قلبها أشجاراً خضراء، ولكن الأبناء اقتلعوا الخضرة والحياة ليزرعوا مكانها أعمدة ميتة، تحويهم في قلبها الأصم كالقبور.

سار «همّام» حزيناً وسط المنازل المتراصة.. كان ثمة غصة في حلقه.. غيرت القرية من طباع أبنائها.. لم يعودوا ملتصقين بالأرض والزرع.. أعماهم المال فأصم قلوبهم عن أرض أجدادهم التي ماتوا فوقها وهم يتشبثون بطينها وزرعها حتى لا يتركوها

لغاصب، حتى «شلبي» الذي لم يحلم بأن يغادر زمام القرية ها هوذا يسعى وراء عمل بالخارج، وقد تجاوزت سنه الستين عاماً!

وتوقف فجأة عندما وصلت إلى أذنيه أصوات بعض أغصان الأشجار القريبة التي تكسرت في صوت واهن، كأنما وطأها شخص ما فامتدت يده إلى سلاحه تأهبا خشية هجوم غادر.

وتلفت حوله.. ولكن أذنيه لم تلتقطا أي صوت.. وداهمه شعور قوي أن هناك عينين تراقبانه عن مسافة قريبة وتترصدانه منذ وصوله القرية. وأدهشه ذلك. فإن كان من يترصده «عمران» أو عصابته، فما الذي منعهم من إطلاق الرصاص عليه كل ذلك الوقت، وأي لعبة يمارسونها معه؟

ومرت دقيقة وهو واقف في مكانه دون أن يسمع صوتاً آخر.

فتحرك مبتعداً صوب الترعة العريضة.. جفت أجزاء منها بفعل الإهمال ولكن ماءها لا يزال جارياً.. وتيارها يحمل عدداً لا حصر له من المعلبات الفارغة والأكياس الورقية.

صار أهل قريته يأكلون من علب الطعام المحفوظة بعد أن تناقصت أرضهم ودقوا فيها الخرسانة وأسياخ الحديد، وهم لا

يدرون أنهم يدفنونها في قلوبهم التي طالما نبضت بالحياة. هز رأسه حزيناً، وعبر الجسر الخشبي الصغير الواصل ما بين ضفتي الترعة، فاهتز به الجسر وتقلقلت أخشابه بشدة كأنها موشكة على التهاوي.

سار «همّام» قليلاً ثم توقف أمام شجرة الصفصاف العتيقة التي طالما تلاقى في ظلها مع «قمر». كانت الشجرة العجوز لا تزال مكانها وإن كانت السنون قد أحنت هامتها، فألقت بأغصانها منكسة إلى قلب الماء كأنها ترفع راية الهزيمة والانكسار.

رمق «همّام» الشجرة بحزن وأحس بآلامه تتضاعف فغادر المكان متألماً.. في ذلك المكان اعتاد ملاقاة «قمر» وهما يحسان بأن الشجرة الطيبة تحميهما عن العيون المتطفلة وتسبغ عليهما مباركتها..

ولكن ما أسوأ تغير الزمن وتقلب الأيام.

ولمح على البعد مقهى القرية. كان لا يزال مفتوحاً عامراً بالساهرين المتحلقين حول جهاز الفيديو حيث اعتادوا البقاء إلى الفجر كل يوم.

ولاح شبح منزل والدته على البعد في قلب الظلام.. فخفق

قلبه بشدة.. كان يتمنى لو استطاع الاقتراب من دوار العمدة.. لو أنه ألقى نظرة على المنزل الذي يضم «قمر» بين جنباته.. لو يتنسم على البعد نفس الهواء الذي احتضنته رئتاها.

ولكن، كان من الخطورة الاقتراب من دوار العمدة، و«عمران» وزمرته ساهرون يقضون الليل كالخفافيش بلا نوم متأهبين للانقضاض عليه في كل لحظة.

وأسرع في خطواته نحو منزل والدته مستتراً بالظلام.. كان المنزل يقع وسط مجموعة أخرى من المساكن تبدو على البعد ككائنات أصابها الهرم، فأعجزها عن الحركة، وأقعت مستندة بعضها على بعض لتموت مكانها في بطء وهي غارقة في الظلام.

وتوقف لاهثاً أمام باب المنزل وهو يشعر أن مراقبه قد استكان مختفياً في زراعات الذرة القريبة غير غافل عنه. لم تكن هناك أية علامة أو صوت على وجود ذلك المراقب الخفي.. ولكن «همَّام» أحس به.. وداهمه شعور بالخطر القريب.. فدق بابه في رفق وتوتر ويده الأخرى قابضة على سلاحه تأهباً.. ومرت لحظات بلا رد.. فعاود الدق ثانية وقد بدأ توتره يصل إلى ذروته.

وانثال صوت من الداخل متسائلاً في شك وريبة: من الطارق؟

كان صوت أمه.. لم يصدق «همّام» نفسه.. غمرته سعادة مفاجئة والصوت الحبيب يستكين في قلبه ويؤكد له أنها بخير.. همس يجيبها بفرحة طاغية: أنا الطارق يا أمي.. «همّام».

وجاءه صوتها يحمل أقصى قدر من الدهشة مرددة: «همّام»؟

غمغم وقد غاب عنه كل قدرته على الصبر: افتحي الباب يا أمي.

انفتح الباب كاشفاً عن بدن والدته النحيل في جلبابها الأسود الحزين، وذبالة ضوء شاحبة متراقصة في الصالة، تضفي على المكان رهبة، وتلقي بظلال خافتة على أمه.

واندفع «همّام» محتضناً والدته غارقاً في دموعه.. أخذ يقبلها ويمسح دموعه فوق رأسها وكفيها، يحتضن جسدها النحيل وكأنه طفل يلوذ بأحضان أمه لتقيه كل شرور وأخطار العالم..

وتفجرت دموع الأم وهي تتحسس وجه ابنها وتعتصر كتفيه بأصابعها الواهنة وهي لا تصدق أنها تراه بعينيها، وتشهق في صوت لاهث.

وامتدت ذراعاها لتغلق باب المنزل وكأنها تخشى من مجهول أو متلصص. واستدارت نحو «همَّام» في اللحظة التي أعاد احتضانها بشوق وهو يزفر بارتياح قائلاً: حمداً لله أنني وجدتك في أحسن حال يا أمي.. وقد استجاب الله لدعائي وحفظك سالمة.. ولكنك تغيرت كثيراً يا أمي.. أشعر أن عمرك زاد أضعافاً.

عاودت أمه تأمله بعينين مفتوحتين عن أخرهما وأنفاس لاهثة قائلة:

ـ أنت أيضاً تغيرت، وأكاد لا أصدق أنك «همَّام» ولدي.

أطلق «همَّام» ضحكة قصيرة خشنة وهو يقول لها: بل أنا هو يا أمي.. هل أريك بطاقتي لتصدقيني؟

احتضنته أمه بشوق سنين طويلة قائلة:

ـ وهل تغني البطاقة عن قلب الأم يا ولدي.. إنني أراك في نومي كل ليلة.. وقد رأيتك هكذا.

تخيلتك كما أنت.. كان قلبي دليلي إليك، وكأنك تنمو وتكبر كل يوم أمام عيني.

جلس الاثنان إلى مقعدين قريبين، وقال «همَّام» في لهفة:

ـ لا أستطيع أن أصف لك كيف أوحشتني يا أمي.. وكيف جزعت عليك عندما تسلمت خطابك الأخير.. ونبأ مرضك.

بدهشة تساءلت الأم: أي مرض هذا يا ولدي؟

قال مهوناً عليها:

ـ مرض القلب يا أمي.. يبدو أن قلبك لم يحتمل أوجاع كل تلك السنين فناء أخيراً، ولكنك ستشفين بإذن الله، وسأذهب بك إلى أحسن الأطباء.

اتسعت الدهشة في عيني الأم وهي تقول:

ـ عن أي شيء تتحدث يا ولدي.. وما الذي أتى بك اليوم، وأنت تدرك مدى الخطر المحيط بك هنا؟

قال «همَّام» في دهشة:

ـ ولكن.. ولكن خطابك يا أمي.. ذلك الخطاب الذي أرسلته لي منذ بضعة أيام تخبرينني فيه عن علة قلبك وخطورة حالتك الصحية ورغبتك في رؤيتي و..

قاطعته الأم مولولة: أنا لم أرسل لك أي خطابات يا ولدي منذ شهور طويلة، ولم أشك أي مرض في قلبي.

قفز «همَّام» من مكانه مذهولاً وهو يردد:

ـ ماذا؟

كانت الإجابة مباغتة.. أشبه بطلقة الرصاص.. تجمد تفكير «همَّام».. شل عقله لحظة خاطفة. واستعاد قدرته على التفكير ثانية وأنفاسه تتسارع في صدره.. وفكر ذاهلاً.. فإن كانت والدته لم تبعث له بذلك الخطاب.. فمن الذي أرسله إليه؟

وكانت الإجابة حاضرة لا تحتمل أي خطأ.

كان هو «عمران» دون شك بعد أن اهتدى إلى عنوانه بطريقة ما.. وقد بعث له بذلك الخطاب ليستدرجه إلى القرية.. مقلداً خط والدته بطريقة بارعة ليلقي به إلى حتفه.. ويسلب حياته انتقاما وثأرا.

أحس «همَّام» وكأن عيني «عمران» تراقبانه من كل مكان وتفحان صوبه شواظا من نار.. وتؤكدان له أنه لا نجاة ولا مفر من الموت أبداً!!

* * *

الوهم

أفاق « همَّام » على صوت والدته الملتاع وهي تقول مولولة: لقد أرسل « عمران » إليك هذا الخطاب يا ولدي ليستدرجك إلى القرية.. ولا شك أنه توصل إلى العنوان بطريقة ما، فأسرع يا ولدي بالعودة من حيث جئت، قبل أن تطولك يد هذا المجرم.

أغمض « همَّام » عينيه في ألم.. لا يصدق أن « عمران » قادر على أن يفعل به ذلك.. عشر سنوات وهو هارب من وجهه ووجه الموت، ويستحيل أن يواصل الهرب ثانية مهما كان الثمن.

والتفت إلى والدته بعينين يتراقص فيهما لهيب غضب حاد قائلاً:

ـ لن أغادر هذه القرية إلا بإرادتي يا أمي.. لقد قضيت سنين

هارباً مطارداً وأنا أحيا في خوف وأموت كل يوم ألف مرة.. وإن كان لا بد من الموت فلأواجهه هنا وجهاً لوجه.

صرخت الأم في فزع:

- لا يا ولدي.. لا.. لن أسامح نفسي أبداً لو أصابك سوء.

ربت «همَّام» فوق كتفها قائلاً:

- لا تخشي شيئاً علي يا أمي.. فإن لدي سلاحي الذي يمكنني من الدفاع عن نفسي.

وقع بصر الأم على مسدس «همَّام» المخفي أسفل سترته فانعقدت الكلمات على لسانها.

وعقد «همَّام» حاجبيه مفكراً، وغمغم يقول: ولكن هناك شيء يحيرني، فإن كان «عمران» قد خطط لهذه الخدعة، فلماذا لم يكن في استقبالي على المحطة أو داخل زراعات القصب، ليثأر مني برصاصة غادرة؟

ارتجفت شفتا الأم قبل أن تجيبه:

- لا أدري يا ولدي.. لعل عين الله جعلته يغفل عنك، أو ربما انشغل مع عصابته الليلة في سرقة أو أي عمل آخر بعيداً

عن قريتنا، وبعد أن كشفت الشرطة وجودها في القرية سعياً للقبض عليه وعصابته.

تذكر «همَّام» رجال الشرطة الذي كانوا يملئون محطة القطار ومدخل القرية. وظهر له التفسير جلياً.. فلولا وجود رجال الشرطة ما توانى «عمران» ورجاله عن القصاص منه.. ولم يكن من شك أن وجود رجال الشرطة المكثف كان الغرض وحيد منه.. هو القبض على «عمران» وعصابته، وهو ما دعاه للاختفاء عن العيون تلك الليلة بالذات.

والتفت «همَّام» إلى والدته في تقطيب حاد متسائلاً:

ـ هل تعاظم شر «عمران» إلى هذا الحد؟

هزت الأم رأسها في حزن قائلة:

ـ بل صار أسوأ مما تظن يا ولدي، فرجاله يعيثون فساداً في القرية بأكملها ويفرضون الإتاوات على سكانها.. ومن يرفض يكن مصيره القتل أو التشويه أو حرق داره وزراعته، حتى بات الناس في رعب منهم. ولا يجرؤ أحد من سكان القرية على الشكوى للشرطة وإلا نالهم الأذى من «عمران» وعصابته. وهذا المجرم ماكر جداً.. فقد اختفى وتحصن بالجبال

القريبة، وصار يبعث برجاله ليسرقوا وينهبوا، ثم يختفون قبل وصول الشرطة. وهو في مكانه الآمن يخطط لهم وينعم بالأسلاب.. ورحم الله والده الذي لم يمد يده لمال حرام أبداً.. ولا بغى على إنسان دون وجه حق، برغم سطوته ونفوذه.

تردد «همَّام».. احتبست الكلمات فوق شفتيه قبل أن ينطق في صوت أقرب إلى الهمس:

ـ و«قمر» يا أمي.. كيف حالها؟

أحنت الأم رأسها في حزن مجيبة:

ـ إنها في أسوأ حال يا ولدي.

فاجأته الإجابة، فالتفت صوبها هاتفاً:

ـ ماذا؟

ألقت الأم ببصرها بعيداً قائلة:

ـ لقد باع أخوها دار والدها وكل أرضه ورفض أن يعطيها قرشاً واحداً، وترك لها منزلاً صغيراً أشبه بالكوخ في أطراف القرية، ولولا معاش والدها الضئيل لماتت جوعاً.

انتفض «همَّام». طعنته الإجابة وأوقدت نيراناً في جسده، فقال مرتعداً.

ـ مستحيل أن يكون هذا هو ما حدث لـ « قمر ».

رمقته والدته بإشفاق وهي تعلم وقع كلماتها عليه جيداً وقالت:

ـ لقد اعتزلت « قمر » العالم كله يا ولدي داخل مسكنها.. وصار أهل القرية لا يرونها إلا مرة كل بضعة أيام أو أسابيع.

صاح « همَّام » في ثورة:

ـ كيف يفعل أخوها ذلك بها.. أي قلب يمتلكه هذا الوحش؟

واستدار صوب أمه متسائلاً: لماذا لم تخبريني بذلك كله يا أمي في خطاباتك؟

ألقت الأم ببصرها بعيداً.. كأنها تهرب من مواجهة « همَّام » قائلة:

ـ وبماذا كان سيفيد ذلك يا ولدي إلا في زيادة أحزانك وآلامك؟

وصمت لحظة قبل أن يضيف في توتر: وهل تزوجت؟

هزت الأم رأسها نافية وقالت:

ـ لا . . إنها ترفض كل من يتقدم لطلب يدها . . حتى توقف الجميع عن ذلك . . بل باتوا يتحاشون حتى مجرد الاقتراب منها .

التمعت عينا «همَّام» وقال في صوت لاهث : إنها تنتظرني يا أمي دون شك . . فقد وعدتني ألا تكون زوجة لرجل غيري، وهي تحافظ على وعدها بتصرفها هذا .

صاحب الأم في غضب وحدة :

ـ أي جنون تنطق به أيها الأحمق؟

أثارت لهجة الأم اندهاش «همَّام» . . تطلع إليها مشدوها . . غمغم متحيراً : ماذا تقصدين يا أمي؟

أحكمت الأم غطاء رأسها الأسود دون أن تتلاقى عيناها بعيني «همَّام» قائلة :

ـ لا شيء . . لقد حكم القدر عليكما أن تفترقا . . فلا تبن آمالا كاذبة على حلم مستحيل .

همس «همَّام» في صوت أقرب إلى التوسل :

ـ ماذا تخفين عني يا أمي . . أخبريني؟

واجهته أمه بعينين لا تطرفان، وقالت بصوت حاسم:

ـ لا شيء.. والآن عد يا ولدي من حيث جئت قبل أن يقتحم «عمران» ورجاله دارنا طلبا لدمك.

قفز «همّام» من مكانه في غضب صارخاً:

ـ لن يجرؤ هؤلاء الأوغاد على أن يمسوا باب منزلنا.. وإذا واتتهم الجرأة فسأفرغ رصاصاتي بين عيونهم دفاعاً عن نفسي.

لم تفقد الأم هدوءها، وقالت:

ـ لا مكان هنا لك يا ولدي.. وقد كنت أفكر قبل أيام قليلة في بيع هذا المنزل لألحق بك في «القاهرة» لأقضي بقية أيامي معك، فلم يعد هناك ما يربطني بهذا المكان.

عاود «همّام» هدوؤه، جلس إلى جوار أمه واحتضن كتفيها بذراعه قائلاً في حنو:

ـ أطال الله في عمرك يا أمي.. وإنني أرى أن ما تقترحينه حل جيد.. ولكنه لن يمنعني من البقاء في هذا المكان، ولن أغادره إلا متى أشاء، وفي العلن وليس هارباً متخفياً كما فعلت قبل عشر سنوات، فقد احتقرت نفسي طويلاً وأنا أسلب ذاتي حريتها وحقها في الحياة.

وصمت لحظة ثم أضاف في صوت عميق: إن لم يكن هناك مفر من موتي برصاص الثأر.. فلأمت في قريتي.. فوق طينها ومائها دون أن أسلب نفسي حق الدفاع عن حياتي، لن أموت هارباً يا أمي.. بل متشبثاً بهذه الأرض وقدمي مغروزة في طينها.

رمقت الأم «همَّام» في صمت وحزن.. ادركت أن أي نقاش لن يفيد.. وانحرف بصرها إلى سلاح ابنها مرة أخرى فأصابت قلبها شكة ألم حادة. كانت ذكرى بندقية زوجها لا تزال عالقة بذاكرتها.

ومرت لحظة صمت طويلة، قبل أن تهمس في صوت واهن تسأل «همَّام»: هل أجهز لك العشاء؟

غمغم «همَّام» في حزن:

لا حاجة للطعام يا أمي.

ربتت الأم فوق رأس «همَّام».. مسحت وجنتيه بكفيها الحنونتين وقالت في رقة:

ـ لا بد أنك متعب إذن.. فاصعد إلى حجرتك.. ستجدها مرتبة نظيفة كما كانت يوم أن غادرتها، فلطالما خامرني شك

أنك ستدق بابي فجأة دون سابق إنذار.. وها قد تحققت ظنوني.

تحرك «همَّام» في بطء وعينا والدته تتابعانه وقد أطبقت جفنيها على دموعها الحبيسة.

وعندما غاب عن عينها أطلقت لدموعها العنان. وهي لا تدري ما تفعله، وهي ترى ولدها الوحيد يخطو إلى دائرة متقدة بالنار لا فرار منها.

وتمدد «همَّام» فوق فراشه وعشرات الأفكار تعصف برأسه.. خديعة «عمران» واستدراجه له إلى القرية.. ووالدته التي توشك أن تقتلع جذورها من أرضها وتغرسها في مكان آخر، . فقط لتكون إلى جواره.. وبنادق «عمران» ورجاله التي تتربص به في مكان ما تنتظر أول فرصة لتنفجر في صدره.

و«قمر» وما أصابها.. لا يصدق أن كل تلك الحوادث قد جرت لها.. وأن الحال قد تدهور بها فصارت تسكن ذلك المنزل الحقير، ولا تجد إلا بالكاد ما يسد رمقها.

«قمر» التي كانت أميرة متوجة تحسدها كل فتيات القرية صارت موضع شفقة الجميع، بل سخريتهم أيضاً.. «قمر» التي

كانت حلماً لكل شبان القرية باتوا يتحاشون مجرد الاقتراب منها، فبأي مشاعر تواجه العالم.. وبأي قلب تتحمل طعنات القدر؟

وأمسك برأسه التي تدقها معاول صداع قاسٍ.. أحس أن رأسه يوشك على الانفجار، واحتبس الهواء في صدره فهرع إلى نافذة الحجرة وفتحها والتقط أنفاسه في صعوبة.. وطالعه الظلام وأشباح المنازل البعيدة.. وأصوات نقيق ضفادع مولولة.. وحقول الذرة القريبة تبدو في الظلام كأنها أشباح متآمرة.

ولمح شيئاً يغادر أعواد الذرة مقترباً يلفه الظلام والوحشة.

كانت امرأة متسربلة في ملابس سوداء وقد أطلقت شعرها بلا ساتر.. وراحت أقدامها تزحف فوق الأرض دون ضجيج.

دق قلب «همَّام» في عنف، وتساءل إن كان ذلك الشبح المختفي في ملابس امرأة، هو «عمران» أو أحد رجاله، وقد جاء متنكراً ليقتحم المنزل ويهدر دماءه؟

امتدت يده إلى سلاحه دون وعي ووقف مكانه متأهباً.. ولكن الشبح المقترب لم يكن يحمل سلاحاً. ولا كانت ملابسه تسمح له بإخفاء بندقيته.

وتحرك شبح المرأة ليقف في مرمى ضوء واهن صادر من نافذة أحد المنازل القريبة. وعندما كشف الضوء عن ملامح المرأة الشبح أطلق «همَّام» صرخة دون وعي.

تجسدت له الملامح على غرابتها وكأنه يعرف صاحبتها أشد المعرفة.

كانت هي «قمر» دون شك.. وإن غيرتها السنون وبدلت هيئتها..

كان شعرها الأسود الفاحم خشنا مبعثراً دون ترتيب فوق رأسها.. وقد استقرت في عينيها الواسعتين الفاتنتين بحور عميقة من الظلام.. أما الشفتان فصارتا خشنتين يابستين وقد ذهب عنهما رواؤهما ودماء الحياة منهما.. وتشققتا كأرض يابسة عطشى. كانت الملامح مختلفة كثيراً. ولكن، كان من المستحيل على «همَّام» أن يخطئ ملامح «قمر» مهما أصابها، ومهما تبدلت.

وفي جنون صاح: «قمر»؟

فأشارت له من مكانها باسمة أن يهبط إليها.. وعيناها ترسلان بوميض ابتسامة ذابلة وكأنهما تستعيدان ذكرى عزيزة.

لم يصدق «همَّام».. أحس كأنه في حلم.. لا يصدق أن «قمر» قد علمت بوجوده في منزله، وسعت لرؤيته، وتشير له أن يلحق بها.

خشي أن يكون حلماً.. كابوساً.. ولكنها كررت إشارتها ثانية.. وهمس «همَّام» يقول لها من مكانه وكل جزء فيه ينتفض من المفاجأة: سآتيك حالاً. ساهبط إليك في ثانية واحدة.

واندفع مغادراً حجرته.. قفز السلالم قفزاً.. ولكنه وجد والدته بانتظاره واقفة تسد الباب بجسدها الهزيل.. صاح بها لاهثاً وفرحة جنونية تعربد في صدره: إن «قمر» تنتظرني في الخارج يا أمي.

ولكن الأم تشبثت بمكانها قائلة:

ـ لا أحد ينتظر بالخارج يا ولدي.

صاح وكل ذرة في جسده تنتفض:

ـ إنها «قمر».. اؤكد لك.. لقد شاهدتها بنفسي.

هزت أمه رأسها نافية قائلة في توكيد:

ـ لم يكن إلا وهماً.

صاح «همَّام» في توسل:

ـأؤكد لك أنها هي.. لقد أشارت لي أن ألحق بها.

عاودت الأم هز رأسها مرددة:

ـلم يكن إلا وهماً.

اختنق صوته.. صار أقرب إلى الذلة والاستعطاف.. همس في ألم:

ـأرجوك يا أمي.. أفسحي لي الطريق.. يكفي قلبي ما ناله من آلام.

لم تحتمل والدته صوته الذبيح وهمساته الطعينة وعينيه المترعتين بالآلام.. أفسحت له الطريق فقفز عبر الباب إلى الخارج.

ولفحه الهواء البارد واخترقت وعيه أصوات نقيق الضفادع وعواء بعيد.. وتلفت «همَّام» حوله في ذهول.. لم يكن هناك أثر لـ«قمر» في أي مكان حوله..

غمغم «همَّام» في ذهول: «قمر».. أين أنت؟

ولم يأته السؤال برد، فصاح بصوت أقرب إلى الصراخ: أين أنت يا «قمر»؟

وجاوبه صوت والدته في ألم من الخلف: أخبرتك يا ولدي أنه لم يكن إلا وهماً.

أوشك أن يندفع إلى قلب زراعـــات الذرة ولكن والدته تشبثت بذراعيه لتمنعه من ذلك.

ألقى «همَّام» نظرة أخيرة على المكان، ثم انسحب عائداً إلى منزله. وما كان يخطو داخلاً، حتى أحس بحمى قاسية تداهمه فتهاوى على الأرض وهو يهذي بكلمات مختلطة، وقد اتقد جسده فصار جمراً مشتعلاً.

* * *

المفاجأة

أحس «همَّام» بشيء بارد رطب يبلل جبهته فيخفف شيئاً من النار المتقدة فيها. فتح عينيه بوهن وهو يشعر كأنهما جمرتان تحرقانه.. ولكنه غالب آلام عينيه وحدق في غمامة والدته الجالسة أمامه ترطب جبهته بخرقة مبللة..

وتذكر كل شيء بغتة، فهمس يقول لأمه:

- كم بقي لي على هذا الحال؟

مسحت الأم دمعة ترقرقت في عينيها وأجابته في حنو وهي تداري دموعها: يومان يا ولدي.

تحسس «همَّام» جبهته.. كانت لا تزال ساخنة ولم تغادره الحمى بعد فقالت الأم حزينة: لم أستطع استدعاء طبيب لك، فقد خشيت أن يلمحه أحد رجال «عمران»، فيدرك أنك بالمنزل، وخشيت أيضاً أن أغادره لاستدعاء طبيب وأتركك وحدك.

طاف شبح «قمر» أمام عيني «همَّام»، في ردائها الأسود، وشعرها الخشن القاسي مبعثر حول وجهها، وهي تناديه بابتسامتها الذبيحة، فهمس لوالدته: يجب أن أعود إلى «القاهرة» الليلة.

قالت الأم في استنكار وجزع:

ـ وأنت مريض؟

ولكنه اعتدل قائلاً: لم تعد هناك جدوى من بقائي هنا.. كما أنني تأخرت كثيراً عن عملي دون إذن.

وضعت الأم مسنداً خلف ظهره قائلة:

ـ سأرافقك إذن في العودة.

ولكن خاطرا طاف بذهن «همَّام» أن يترصده «عمران» ورجاله في مكان وسيجدون فيه وامه صيداً سهلاً.. ولم يكن من شك أنهم لن يسمحوا له ببقاء شاهد على جريمتهم ولو كانت امرأة عجوزاً، فقال لوالدته: سأسافر وحدي.. فإنني أشعر أنني قد استرددت قواي.

اعترضت الأم بصوت شاحب:

ـ ولكن.

قال «همَّام» في إصرار:

ـ أرجوك يا أمي.. لم أعد مريضاً، وسفرك معي سيكون لافتاً للنظر أكثر.

صمتت الأم ولم تنطق، وتحرك «همَّام» مغادراً فراشه وهو يشعر بجوع شديد فالتهم ما أعدته والدته من طعام دون أن يشعر بأي مذاق له.

وبقي الساعات الباقية على انتصاف الليل إلى جوار نافذة حجرته متطلعاً إلى الأفق البعيد في صمت، كأنه في مناجاة صامتة.

وعندما حان أوان الرحيل ارتدى ملابسه والتقط حقيبته، واحتضن والدته فأجهشت ببكاء حار، فمسح دموعها برفق قائلاً: سأنتظر مجيئك متى قمت ببيع منزلك.. ولكن لا تتأخري، وابعثي لي قبلها بخطاب.

ـ لن أعدم مشترياً للمنزل. فالعائدون بالمال الوفير من الخارج كثيرون، ولكن ما يعز علي أن أي مشتر سيقوم بهدم المنزل ليبتني مكانه منزلاً كبيراً من الأسمنت المسلح.

هز « همَّام » رأسه حزيناً وقال:

ـ ما أكثر الأشياء التي تهدمت في قريتنا يا أمي.. دون أن يذرف إنسان عليها دمعة واحدة..

وخطا إلى باب المنزل.. وقبل أن تمتد يده إليه استدار إلى والدته، قائلاً بصوت حزين: هناك سؤال أود أن تجيبيني عليه يا أمي.. وأعدك أن ما ستخبرينني به لن يؤثر على قراري بالسفر والعودة إلى « القاهرة » بأي حال.

نكست الأم رأسها في حزن وقالت: إن السؤال ناطق في عينيك يا ولدي، ولا يمكنني أن أخطئه فأنت ترغب في معرفة حقيقة ما أصاب « قمر ».. أليس كذلك؟

هتف بلهفة: هذا صحيح يا أمي.

ارتعدت شفتا الأم.. بدا أنها تقاسي بشدة، كأنها تدرك وقع الإجابة على ولدها. ورفعت إليه عينين حزينتين وهي تقول: إن أهل القرية يقولون إن « قمر » قد أصيبت بالجنون.

صرخ « همَّام » بلا وعي وعيناه مفتوحتان عن آخرهما: ماذا؟

ربتت الأم كتف ولدها في إشفاق مواصلة:

ـ هذا هو ما يقولونه يا ولدي.. وهم يعزون ذلك إلى انطوائها وعدم معارضتها لبيع أخيها نصيبها في ممتلكات والدها واستيلائه عليها وصمتها الطويل الذي يصل لأسابيع عديدة دون أن تحادث إنساناً.. أو تقع عليها عين.. وكذلك صار الناس يسمعون أصوات ضحكات جنونية وصرخات مفزعة صادرة عن منزلها في الليل. كل هذا دلنا جميعا على أن خللا قد أصاب عقلها، ولهذا انصرف الجميع عنها وخشوا مجرد الاقتراب منها.

شعر «همَّام» بدوار.. أوشك أن يتهاوى، واستند على الحائط.. قالت الأم بصوت حزين: أنت وعدت يا ولدي.

عض شفتيه قسوة وألماً.. ترقرقت عيناه بدموع ملتهبة رغماً عنه.

امتدت يده المحمومة لتفتح باب المنزل وخطا خارجه.. كأنه يهرب من سجن.

ووقفت والدته تراقبه حتى ابتلعه الظلام، فرفعت يديها لله بالدعاء.

فجأة دوت أصوات طلقات رصاص متتابعة في الناحية

الغربية للقرية، الملاصقة للجبل، فتوقف «همَّام» لحظة وهو يشم رائحة الخطر والبارود.

وتردد لحظة في العودة الى منزل والدته، ثم حسم أمره سريعاً.. وواصل سيره في اتجاه محطة القطار البعيدة بالناحية الشرقية.

وراحت كلمات والدته تدوي في ذهنه وتوشك أن تفجرها.. فسقطت دموعه رغما عنه وقدماه تقودانه بعيداً..

تمنى لو استدار عائداً إلى «قمر».. لو طرق بابها.. لو سكب دموعه أمامها.. لو لثم كفيها وأشبعهما نحيباً وألماً.. لو تحمل عنها بعض آلامها وأوجاعها.

لا يستطيع أن يتخيل ما أصابها.. لا يمكنه.. فهل كان هو السبب. هل كان والده.. هل كان القدر؟

وماذا باستطاعته أن يقدم لها.. أي حل يمكنه إنقاذها مما هي فيه؟

وتساءل في مرارة، ألا تزال تذكره؟ هل يمكنها التعرف عليه إذا ما وقع بصرها عليه؟ أم أن ما أصابها قد ضيع عقلها وذاكرتها، وتركها كائناً سليب الماضي والحاضر؟

وأحس بحرارة جسده تتقد أكثر.. وود لو أنه غادر ذلك المكان في لمح البصر.. لا يطيق مجرد البقاء فيه بعد أن عرف بما أصاب « قمر »..

فجأة برز شبح رجل من وسط زراعات القصب قاطعاً الطريق عليه.. وقد غطى رأسه ووجهه بلثام ثقيل شاهراً بندقيته في صدره.

جمد « همَّام » مكانه.. أفلتت أصابعه حقيبته الصغيرة فسقطت على الأرض وغاصت في الطين.. ولكن « همَّام » لم يشعر بخوف أو وجل.. كان قلبه كسيراً حزيناً حصيناً يشتهي الموت ليريحه من عذابه، لم يعد من سبب لبقائه في الحياة بعد أن ذهبت « قمر » بلا عودة..

امتدت يداه لتكشفا صدره، وصاح في « عمران »: هيا اقتلني وأرحني من عذابي.. وأفرغ رصاصاتك في قلبي..

جاءه صوت « عمران » خشناً غير مألوف في سخرية قاسية:

ـ كنت أظن أنك ستبكي وتتوسل وتنهار طالباً الصفح متعللاً بأنك لا ذنب لك في كل ما جرى، لا أن تطلب الموت كأنك تشتهيه.

تهدج صوت «همَّام» في لهجة مريرة قائلاً:

ـ لم تعد الحياة عندي تستحق حتى مجرد دمعة واحدة.

أجابه «عمران» في سخرية:

ـ هذا غريب بالنسبة لشخص هرب سنوات طويلة للنجاة بحياته.

قال «همَّام» في مرارة:

ـ صدقني.. لم تعد حياتي تساوي شيئاً.. ولعل رصاصاتك يكون فيها راحتي من آلامي.

أطلق «عمران» ضحكة خشنة قاسية بترها فجأة قائلاً: لن تخدعني بحيلتك هذه.. ولن تأخذني بك شفقة، فقد انتظرت هذه اللحظة طويلاً.. عشر سنوات وأنا أنتظرها.. وخشيت أن أموت قبل أن أهتدي إليك، فنجحت بخدعة في الحصول على أحد خطابات أمك إليك بعد أن أسقطتها في صندوق بريد القرية المجاورة، و عرفت من خلاله عنوانك فسطرت تلك الرسالة إليك.. وهأنتذا جئت تسعى إلى حتفك، وتحاول التسلل هارباً في الظلام مثل أي جبان، برغم ما تتشدق به من كلمات شجاعة زائفة.

هتف «همَّام» في صدق:

-لو أنني أبغي الحياة حقاً لربما رأيتني أحاول استخدام سلاحي دفاعاً عن نفسي.. ولكني لم أفعل، فهيا.. أطلق رصاصاتك علي لتريحني من عذابي.

صوَّب «عمران» البندقية إلى صدر «همَّام» وقد أخفى اللثام وجهه عدا عينيه اللتين سترهما الظلام.. وقبل أن يمس أصبعه زنادها، استرد همَّام رغبته في الحياة.. ودق قلبه في عنف وأفكار جديدة تغزو رأسه.

كانت والدته في حاجة إليه.. ليعوضها سنوات حرمانها منه.. ولو بلغها نبأ وفاته، لأصابها الموت في نفس اللحظة.

ولم يكن ذلك المجرم الذي يصوب بندقيته اليه ليترك له أي فرصة للحياة فقد صار قاتلاً.. اعتاد سفك الدماء دون أن تطرف له عين، لم يكن سوى مجرم أثيم مطارد من الشرطة والعدالة، وهو لن يسمح له بالتباهي بقتله أمام أهل القرية لتموت أمه كمداً وحزناً. وفي حركة مباغتة قفز «همَّام» من مكانه، وضرب يد «عمران» فأسقط البندقية منه على الأرض، وبيده الأخرى دفع غريمه للخلف، ففقد توازنه وسقط على الأرض..

وندت صرخة متألمة من «عمران»، وانزاح اللثام عن وجهه.

وما أن وقع بصر «همَّام» على وجه غريمه حتى ندت عنه آهة ذهول لا حد لها وتجمد مكانه مغمغماً في عدم تصديق أقرب إلى الجنون: «قمر»؟

* * *

الثأر

قفزت «قمر» مثل وحش جريح، والتقطت بندقيتها وصوبتها إلى «همَّام»، وقد تبعثر شعرها الخشن حول وجهها في فوضى لا مثيل لها، وأرسلت عيناها لهباً حارقاً يفيض بكراهية لا مثيل لها.
وقالت في صوت كالفحيح:

نعم.. إنني «قمر».. «قمر» التي انتظرت كل تلك السنين لتثأر منك أيها الوغد الهارب، وها قد حانت تلك اللحظة التي اشتهيتها سنين طويلة.

كانت المفاجأة أقسى من أن يتحملها «همَّام»، فهز رأسه في ذهول قائلاً:

ـ أنت.. لا.. مستحيل؟

صرت «قمر» على أسنانها في صوت حاد وهي تقول:

ـ ولماذا تظن أنه مستحيل، هل صدقت ما أخبرتك والدتك

أنني أصبت بالجنون كما يشيع عني سكان القرية. ولكن هأنتذا ترى أنني لم أجن. ولكن ما كاد يفقدني عقلي حقاً هو عجزي عن الوصول إليك والاهتداء لمكانك، لافرغ رصاصات الثأر في قلبك وأسلبك حياتك، كما سلب أبوك حياة أبي.. ولهذا تحايلت لمعرفة عنوانك بعد أن سرقت أحد خطابات والدتك ثم خططت لهذه الخدعة وأتيت بك إلى القرية مرة أخرى.. فهل ترى أن من تفعل ذلك تكون مجنونة؟

غمغم «همَّام» في ذهول وهو لا يزال يعاني من أثر المفاجأة:

ـ مستحيل.. لا أكاد أصدق ما أراه.

أرسلت عينا «قمر» لهباً محترقاً وهي تقول:

ـ لقد تدربت طويلاً على إجادة الرماية بالبندقية استعداداً لهذه اللحظة..

كنت أرسم على الحيطان وجهك وأصوب رصاصاتي ما بين عينيك، لقد قتلتك ألف مرة بعين خيالي، وقد حان الوقت لأقتلك بالفعل.

أخفى «همَّام» وجهه بين كفيه وصاح في ألم حاد:

ـ مستحيل أن يكون حبك لي قد انقلب كراهية إلى هذا الحد.

صرخت «قمر» في جنون:

ـلا تتحدث عن حبي أيها الوغد. أيها الجبان الهارب.. لقد خشيت على حياتك بمجرد أن علمت أن «عمران» أخي سعى في أثرك فأسرعت هارباً مثل لص حقير. كل ما يهمك هو النجاة بحياتك من ذلك الشيء التافه الذي لا قيمة له أمام حياة أبي التي خسرت بفقده كل شيء، حتى احترام اهل القرية وخشيتهم. كانت قلوبهم ترتجف لمجرد مروري إلى جوارهم، كنت بالنسبة لهم حلماً وطيفاً وخيالاً يستحيل الوصول إليه.. فصاروا بعدها يرمونني بنظرات الشفقة والسخرية، وفقدت منزل أبي وأرضه بعد أن باعهما «عمران» لينفق منهما على إدمانه المخدرات وصار أسيراً لها.

أفاق «همَّام» في ذهول مردداً:

«عمران»؟

اكتسى وجه «قمر» بحزن مرير وهي تواصل:

ـلعلهم أخبروك أنه صار زعيم عصابة يخشاه سكان القرية والقرى المجاورة لشدة بطشه وعصابته.. حتى استدعى الأمر وجود رجال الشرطة المكثف في القرية لكف أذى «عمران» عن أهل

القرية، ولكن الحقيقة لا يعرفها أحد غيري.. فبعد وفاة أبي فقد «عمران» الحماية والسطوة الحقيقية.. أحس بضآلة حجمه وضعفه فقد كان يستمد قوته الحقيقية من أبي.. وبفقده اكتشف الحقيقة، وأنه عاجز حتى عن حماية نفسه، فاستعان ببعض رجال العصابات لحمايته وفرض سطوة زائفة، ثم أدمن المخدرات فصار يقضي أغلب وقته غائباً عن الوعي والعالم.. وانتهز رجاله الفرصة فراحوا يسلبون وينهبون ويقتلون، وهم يشيعون أنهم ينفذون أوامر «عمران»، دون أن يدري أحد الحقيقة، وأن أخي بات لا يستطيع حتى رفع ذراعه بسبب المخدرات.. فقد تهدمت حياته أيضاً واستحال عليه أن يأخذ بثأر أبيه.. ولهذا حملت بندقيته بدلا منه.. وانتظرت تلك اللحظة التي أغسل فيها عاري وأخي وأسفك دمك ثأراً لدم أبي المسفوك.

غمغم «همَّام» وهو يهز رأسه في ذهول مطبق لما سمعه:

ـ مستحيل.. لا أكاد أصدق.. كأنه كابوس..

ضاقت عينا «قمر» عن آخرهما، وقالت في صوت متحشرج:

ـ إنه كابوس بالفعل. كابوس بدأ لحظة أطلق أبوك الرصاص على أبي.. فدمر حياتنا وأغرقنا في الألم واليأس المرير.. كابوس

جثم على قلبي كل تلك السنين وراح يقتلني كل يوم ألف مرة وأنا أدور في منزلي الحقير مثل وحش حبيس، لا أجد ما أفعله غير عض أصابع الندم والصراخ في جنون والبكاء عجزاً وألماً.. وأنت هارب مختف في مكان ما، لا حيلة لي على الوصول إليك وتمزيق أحشائك.

صرخ «همَّام» في ألم حاد:

ـ كفى.. أرجوك كفى.. لم أعد قادراً على سماع المزيد..

صرخت «قمر» في جنون:

ـ بل يجب أن تسمع رغماً عنك فلم يعد لك الاختيار في شيء.. أتعلم.. لقد كنت أتعقبك لحظة وصولك القرية وراقبتك عن بعد وأنا قابضة على بندقيتي ولكن وجود رجال الشرطة المكثف حال دون قتلي لك، حتى لا يقبض علي أيضاً.. فليس أسهل من إطلاق الرصاص عليك لينسب الأمر بعد ذلك الى عصابة أخي «عمران»، ولكن بعيداً عن عيون رجال الشرطة، وهو ما دعاني للإنتظار وعدم التهور بقتلك لحظتها.. وبعدها تبديت لك ليلة وصولك القرية أسفل منزلك ودعوتك لتلحق بي.

اتسعت عينا «همَّام» عن آخرهما وهو يقول:

-لم يكن وهماً إذن أن تصورت وجودك لحظتها؟

تلاعبت ابتسامة ماكرة على شفتي «قمر» وقالت:

-بل كان حقيقة، وتمنيت لحظتها أن تلحق بي وسط زراعات الذرة العالية لأجهز عليك برصاصاتي ولكنك لم تفعل.. ولكن ما تأجل كل الليالي الماضية حان أوانه الآن.

فاضت عينا «همّام» بنظرة طعينة تتفجر بالآلام والأحزان، وقال في صوت يقطر مرارة:

-إن كنت ترغبين في قتلي فافعلي حالاً، فبعد كل ما رأيته بعينيَّ لم يعد هناك ما أعيش لأجله.. فالموت أهون عندي من معرفتي أنك عشت كل هذه السنين وأنت تكرهينني كل هذه الكراهية المستعرة، ومن أجلها كنت تتدربين على قتلي.. فقد كان ظل حبك لي وأملي أن يعيدنا القدر بعضنا لبعض ثانية هو ما أعيش لأجله. فأنا مثلك ضحية أيضاً بلا ذنب.. وقد دفعت الثمن غالياً.. عشر سنوات عشتها كالحي الميت بلا هدف.. بلا أمل.. بلا رغبة حقيقية في الحياة.. تهاجمني الكوابيس كل ليلة، وأرى من يطلق فيها الرصاص على صدري. عشت هارباً مرتعداً سجيناً، خشية أن ترصدني عين اخيك وتغتالني رصاصاته.. ولم اكن

أدري أنك من تسعين خلفي لا هو.. وأن أحلام الحب صارت أحلاماً للموت والثأر والدماء، وليتني عرفت أنك أنت من تترصدينني وتحرقك نيران الكراهية ضدي، لأتيت طوعاً أقدم لك حياتي فداء لأريحك من نيران الثأر والعذاب.

ارتعدت البندقية بين أصابع «قمر» وصرخت كوحش:

ـ صه أيها المعتوه.. لا تحاول القيام بدور البطل أو المحب الولهان.. فقد مات حبي لك منذ سنين بعيدة، منذ تخضبت يد أبيك بدم أبي المسفوك.. واشتعل قلبي منذ تلك اللحظة بنيران الكراهية والرغبة في الانتقام.

مزق «همَّام» قميصه كاشفاً عن صدره العاري وصرخ في «قمر»:

ـ اقتليني إذن.. هيا.. اضغطي على زناد البندقية واسلبي حياتي، فلم تعد لها بعد الآن أي قيمة.. ولكن صدقيني. فإنني أخشى عليك من أن يجتذب صوت الرصاص رجال الشرطة، فيلقون القبض عليك، ولست أرغب لك هذه النهاية، حتى لو كنت قاتلتي، فقلبي لن يكف عن حبك، حتى لو مزقته إلى ألف قطعة.

أطلقت «قمر» ضحكة عالية ساخرة خشنة مزقتها بغتة وهي تصر على أسنانها بعنف قائلة:

ـ يا لك من عاشق كاذب مخادع، فإن كنت تظن أن كلماتك الزائفة تلك ستؤثر عليّ وأعفو عنك فأنت واهم.. وإن كنت تخشى المصير الذي ينتظرني حقاً فاطمئن.. لأنني قبل دقائق أطلقت الرصاص إلى الناحية الغربية من القرية، لكي أستدرج كل رجال الشرطة المحيطين بالقرية هناك، فيسهل علي عندئذ اصطيادك في هذا المكان، وإفراغ رصاصاتي في صدرك، ثم الهرب قبل أن يلحق بي رجال الشرطة.

امتلأت عينا «همَّام» بدموع ساخنة كالنار.. كأنه لا يصدق ما تقوله «قمر» وأنها أجهدت عقلها وقلبها كل تلك السنين لأجل خاطر وحيد، أن تقتص منه وتفرغ رصاصاتها في قلبه، فهمس في صوت أقرب الى التوسل:

ـ ماذا تنتظرين إذن.. هيا.. صوبي رصاصاتك إلي وأفرغيها في صدري وبادري بالهرب قبل وصول رجال الشرطة لتأمني حياتك..

زمت «قمر» شفتيها اليابستين الحادتين كشفرة موسى وقالت ساخرة:

- ولكني لن أقتلك هنا.. بل هناك.. في نفس المكان الذي أصابت فيه رصاصات أبيك أبي، لترتوي نفس الأرض من دماء الثأر كما ارتوت من دماء أبي من قبل.

تحرك «همَّام» في صمت إلى الناحية الجنوبية.. سار كالمنوم.. قادته قدماه إلى نفس المكان الذي شهد المأساة وبندقية «قمر» مشرعة إلى ظهره على مسافة خطوات قليلة.. على مقربة من جسر الترعة الخشبي المتآكل.

لم يداهمه خوف أو فزع أو خشية من الموت، بل ألم مرير حاد كنصل سكين يمزق مشاعره.

واستدار «همَّام» إلى «قمر».. وأشار بيده جهة حقل الذرة القريب على الناحية الأخرى من الترعة قائلاً: سوف يؤمن لك هذا الحقل سبيل الهرب بعد قتلي، فاسلكيه مباشرة بعد عبورك الجسر الخشبي، وستجدين منزلك على مسافة خطوات عند نهاية حقل الذرة.

لم تنطق «قمر» بكلمة.. طوقت عيناها «همَّام».. تركزت كل تفاصيله في مقلتيها الواسعتين.. تهدجت أنفاسها وبدا كأنها تصارع ذاتها. رفعت البندقية بين

أصابعهـا.. سـددت فوهتها إلى صدر «همَّام».. مكان القلب تماماً.

لمحت نظرة مجهولة في عينيه..

تحـركـت شـفـتـاها الـيابسـتـان كـمـا لو كـانـتـا تودان أن تنفـرجـا بكلمات حبيسة دون أن تقدرا على ذلك.

ارتجـفـت أصـابعـهـا.. وكـأنهـا توشك أن تفـقـد القـدرة على العمل..

وبدا على «قـمـر» كأنها تبـذل مجـهوداً لا طاقة لإنسـان به.. وأصبعها يرتعد فوق زناد البندقية.

وحزت على أسنانها وهي تقول كالمحمومة: يجب أن تموت.. الدم مقابل الدم.

وتحرك أصـبعـهـا فـوق الزناد و.. وقـد امـتـلأت عـيناها بدمـوع ملتهبة..

ودوى صـوت الطلقـة القاتلة ممزقاً سـكون الليـل وطمـأنينته.

وتهـاوى «همَّام» على الأرض، وقـد شـقـت الرصـاصـة صـدره، وتركته غارقاً في دمائه.

* * *

لن أخذلك

كان الألم أقسى مما يحتمله «همَّام».. وشعر بروحه تغادر جسده رويداً رويداً.. تجسد له كابوس أحلامه خلال تلك السنين واقعاً حياً.. ها هي الرصاصة القاتلة تجد طريقها إليه أخيراً.. ولكن..

كانت قاتلته هي «قمر».. لا «عمران»..

فتح عينيه بمجهود شاق.. تراقصت سحابة ضباب أمام عينيه.. بدت له «قمر» بملامح غائمة مشوشة.. كانت لا تزال واقفة مكانها ترمقه بعينين متحجرتين وقد بدا كأن أنفاسها توقفت تماماً.. وكأنها أصيبت بالشلل ولا تكاد تصدق أنها فعلت به ما فعلت.

همس «همَّام» إليها في ألم قاتل متوسلاً: أسرعي بالهرب يا «قمر».. سيأتي رجال الشرطة خلال دقائق، على صوت الرصاص.

ارتعدت «قمر» لسماع كلمات «همَّام»..

بدا وكأنها تفيق من كابوس..

وشهقت بفزع وهي تحدق فيه، كأنها لا تصدق ما فعلته.. أطلقت صرخة مدوية واندفعت تجري نحو الجسر الخشبي، فأغمض «همَّام» عينيه ودماؤه تختلط بالأرض الطينية تحته وتصبغها بلون قان، واستسلم لطائر الموت المحلق فوق رأسه. ولكن صرخة مدوية اخترقت وعيه وأعادته إلى الحياة.

كان من المستحيل عليه أن يخطئ صاحب الصرخة.. فتح عينيه بمجهود شاق.. وعلى مسافة قريبة شاهد «قمر» وقد تهاوى تحت قدميها الجسر الخشبي، فسقطت في قلب مياه الترعة العميقة..

كان يعرف أنها لا تجيد السباحة وتفزع من الماء.. وأمام عينيه المفتوحتين عن آخرهما شاهدها وهي تتخبط في مياه الترعة وتطلق صرخاتها المفزوعة وهي توشك على الغرق، لم يكن أحد إلى الجوار ليمد لها يد الإنقاذ.. لا أحد سواه.. وثمة رصاصة مستقرة في صدره استلبت كل قواه، وتحمله إلى قبره رويداً رويداً.

رصاصة أطلقتها تلك الفتاة ذاتها التي تصارع الغرق أمام عينيه على مسافة خطوات قريبة.

وأفزعه خطر غرق «قمر» على مسافة قريبة.. رفع وجهه عن الأرض بمشقة وبكل ما تبقى له من قوة صاح: «قمر».. تشبثي بأي شيء حولك.. إنني قادم لك.. وبذل كل جهده ليقف فوق ساقيه.. ترنح بشدة والدماء تغرقه.. تهاوى على الأرض ولم يقدر على الوقوف فزحف تجاه الترعة.. عندما بلغ شاطئها شاهد «قمر» وقد استسلمت للمياه..

لم يكن ثمة وقت لإضاعته، فألقى بنفسه في قلب الماء. كان ماهراً في السباحة. ولكن الرصاصة المستقرة في صدره شلت قدرته. بذل جهداً خارقاً ليتشبث بـ«قمر».. رفعها فوق ذراعيه ودفعها نحو شاطئ الترعة..

أيقن أنها حية من أنفاسها الواهنة و.. وبذل جهداً خارقاً ليرفع جسده إلى الشاطئ. فتحت «قمر» عينيها.. بدا أنها في صحوة الموت. شاهد في عينيها الواسعتين طيف ابتسامة تطل من ماض بعيد، لم تقو على النطق.. ولكن آلاما حزينة أطلت من العينين الواسعتين الكحيلتين..

ألم ندم وعذاب وسنين حزينة.. همس يقول لها: قاومي يا «قمر».. سأحملك إلى المستشفى حالاً، وستنجين بإذن الله.

لم تنطق «قمر».. أغمضت عينيها وبدا كأنها سقطت في غيبوبة.

رفعها «همَّام» فوق ذراعيه.. أوشك أن يتهاوى لثقلها وضعفه لكنه تماسك.

أحس بقوة ليست له تتقمص جسده.

تجمعت الدموع في عينيه وهو يقول لها: لن أخذلك هذه المرة.

فتشبثت يداها بعنقه كأنها تود لو ماتت وهي بين ذراعيه.

اندفع يجري بها في خطوات متعثرة، وساقاه لا تقويان على حمله.

كان المستشفى الصغير يبعد أكثر من خمسمائة متر قطعها «همَّام» في دقائق كثيرة. أخذت قواه تخور وتخور. ترنح

وتهاوى أكثر من مرة. وكل مرة عاود النهوض وقد أغرقته دماؤه أكثر، وتشبث بـ «قمر» فوق ذراعيه، وهمس لها: لن أخذلك هذه المرة.. ثقي بي.

وأمام باب المستشفى المفتوح تهاوى على الأرض بلا حراك..

* * *

أيام الحب..

تسللت إلى صدره روائح مختلطة.. رائحة يود ومطهرات وشاش معقم. فتح «همَّام» عينيه ببطء فشاهد نفسه راقداً فوق فراش داخل حجرة ناصعة البياض.. وقع بصره على والدته الجالسة فوق مقعد إلى جوار فراشه تمسح دموعها الغزيرة، وما أن شاهدته يفتح عينيه حتى أطلقت زغرودة عالية، وهتفت في فرحة قائلة: لقد استعدت وعيك يا ولدي.. الحمد لله.

تنبه «همَّام» إلى ضمادة كبيرة تحيط بصدره.. واحس بألم حارق مكانها. وشاهد طبيباً يخطو إلى داخل الحجرة وقد اجتذبه صوت الزغرودة، فقال باسماً: مرحباً بعودتك إلى الحياة أيها البطل.. فقد أصابت الرصاصة صدرك على مسافة سنتيمترات قليلة من القلب، ونزفت نصف دمائك.. ولولا

عناية الله بك وإصرارك على الحياة وتشبثك بها، ما نجوت أبداً، برغم العملية الجراحية الخطيرة التي أجريناها لك.

وضاقت عيناه وهو يتساءل في شك ودهشة: أحقاً ما يروونه من أنك حملت فوق ذراعيك وأنت مصاب فتاة لأكثر من خمسمائة متر؟

أصاب «همَّام» ذعر فهتف في ألم وقد داهمته الأحداث:

«قمر».. ماذا حدث لها.. هل نجت؟

ربت الطبيب فوق ذراعه قائلاً:

- اطمئن.. لقد نجت والحمد لله.. ولو تأخرت بها دقيقة واحدة لماتت لكثرة ما ابتلعت من مياه.

غمغم «همَّام» في ارتياح:

- الحمد لله:

أخذ الطبيب يقيس نبض «همَّام» وهو يقول:

- هي أيضاً لم تتركك لحظة واحدة بعد أن تم نقلك إلى مستشفى العاصمة بسبب خطورة حالتك فظلت ساهرة الى جوارك وتبرعت لك بدمائها أكثر من مرة خلال العملية الجراحية بعد أن أوشكت على اليأس من نجاتك بسبب كثرة

دمائك النازفة وعدم وجود فصيلة دمك في ثلاجة المستشفى..
ولحسن الحظ إن دماءكما من فصيلة واحدة.

ردد «همَّام» في دهشة مذهولاً: «قمر»؟

أضاف الطبيب ضاحكاً: لقد صارت دماؤها تسري في عروقك كما يقول التعبير الشائع.. وأرى الآن أنك استعدت نبضك الطبيعي وهو علامة على سرعة الشفاء.

أغمض «همَّام» عينيه.. لا يكاد يصدق.. لماذا أنقذت «قمر» حياته وتبرعت له بدمائها؟ هل ترد له الجميل.. هل تمنحه فرصة الحياة لكي تطلق عليه الرصاص مرة أخرى؟

أي مشاعر يحتويها قلبها نحوه تلك اللحظة؟

وأجهدته التساؤلات الأليمة، وعذبته صورتها وهي واقفة تصوب بندقيتها إليه وتطلق رصاصتها إلى صدره.. ففتح عينيه ليهرب من خياله.

وأذهله أن وقع بصره عليها واقفة إلى جواره ترنو إليه في صمت وألم، ودمعة تترقرق في مقلتيها.

انسحبت والدته تاركة الحجرة لهما وحدهما..

ظن أنه يحلم.. يتخيل.. ولكن دموع «قمر» الساخنة التي سقطت فوق كفه أكدت له حقيقة وجودها.

همس يقول لها: أتبكين.. لأجلي؟

لم تخجل من دموعها وهي تهمس له:

ـ لا أصدق أنني فعلت بك ذلك.. وطاوعني قلبي على إطلاق الرصاص عليك.

قال في رقة:

ـ ولكنك أنقذت حياتي بدمائك.

ألقت ببصرها بعيداً غير قادرة على مواجهته وهي تقول:

ـ مهما فعلت فلن أستطيع أن أرد لك صنيعك.. لا أكاد أتحمل قسوة ذلك المشهد الذي بات يداهم عقلي ليل نهار، فأرى نفسي غارقة أتشبث بأي شيء حولي، وأراك تلقي بنفسك خلفي في الماء لإنقاذي بالرغم من رصاصتي التي مزقت صدرك. أنا أردت لك الموت وأنت لم تضن علي بالحياة. فأي جنون جعلني أفعل ذلك بك وبنفسي.. وأي كراهية صار قلبك يحملها لي بعد كل ما حدث؟؟

خففت كلماتها الكثير من أوجاعه، فهمس في وهن يقول لها:

- يستحيل علي أن أكرهك مهما فعلت بي.. وقد قدمت حياتي لك طوعاً ما دامت ستخفف من أوجاعك وآلامك.

انحدرت دمعة أخرى من عينيها وهي تقول:

- لِمَ كنت قاسية لا قلب لي؟

اشفق لرؤية دموعها، وقد كانت عيناها لا تعرفان غير السعادة من قبل،

فقال مهوناً عليها:

- أعرف ما مررت به من آلام وأحزان بعد وفاة أبيك.

استدارت تجاهه.. واجهت عينيه في صراحة بصوت متهدج قائلة:

- أنت لا تعرف شيئاً.. فلم يكن انتقامي وإطلاقي الرصاص عليك.. إلا بتأثير حبي لك.

فاجأته العبارة والاعتراف.. غمغم في ذهول:

- حب لي.. ظننت أنه مات لحظة موت والدك.

انهارت إلى المقعد القريب منه.. أخفت وجهها بكفيها وهي تقول منتحبة:

ـ هذا ما حاولت إيهام نفسي به.. حاولت خداع ذاتي.. ولكني اكتشفت أنني أبذل مجهوداً ضائعاً عندما تأكدت أنه من المستحيل أن أتخلص من هذا الحب مهما فعلت.. ولهذا كنت أتعذب وأتألم كل يوم ألف مرة لغيابك.. لأنك تركتني وحيدة وهربت.. غادرت حياتي إلى الأبد في اللحظة التي كنت فيها في أشد الاحتياج إليك.. فما كان لإنسان أن يعزيني في مصابي وآلامي سواك.. ولكنك قررت الرحيل خوفاً على حياتك.. دون أن تفكر فيّ لحظة واحدة وأنني بدونك أذوي وأموت.. كزهرة جف رحيقها.. كشجرة يبست أغصانها.. ولهذا حولت حبي لك إلى كراهية.. كراهية اصطنعتها بيدي.. لأستر وراءها مشاعري الحقيقية.. حاولت أن أخدع مشاعري وأقنع نفسي بكراهيتي لك ورغبتي في الثأر منك، لإخفاء حبي لك.

لم ينطق «همّام».. ظل يحدق في «قمر» غير مصدق.. ولكن دموعها ونظراتها الأليمة كانت تؤكد صدقها.. وواصلت

ودموعها تغرقها: عشر سنوات وأنا أنتظر عودتك دون أن تعود.. كنت مستعدة أن أسامحك بكلمة واحدة منك.. ولما أعياني الصبر خططت لتلك الحيلة لعودتك إلى القرية وأنا أفكر أنه لا حيلة لي في خلاصي من حبك وعذابي فيه.. إلا بقتلك جزاء لك على تخليك عني، أما الحجة الظاهرة، فكانت ثأري لوالدي.. والحقيقة أنني كنت أثأر لنفسي وحدها.

أخفى «همَّام» وجهه بين كفيه.. كأنه يهرب من قسوة الاعتراف.. غمغم وكلماته تحمل رائحة دموع الندم: ليتني أدرك حقيقة مشاعرك.. ما كنت غبت عنك ساعة واحدة.

مسحت «قمر» دمعة ترقرقت في عينيها وبدا أنها تتطهر مما يحمله قلبها من شجون وهي تقول:

- لقد انتظرتك عند عودتك القرية وأنا أحمل البندقية.. وراقبتك وتتبعتك من بعيد وسط حقول الذرة وصوبت إليك بندقيتي ولكني لم أجرؤ على إطلاقها عليك أبداً.. وحتى عندما واتتني الجرأة على ذلك.. صوبت رصاصتي بعيداً عن قلبك لأنني لم أصدق لحظتها اعترافك بحبك لي وظننتك تخدعني لتنجو بحياتك.. ولكن بعد إنقاذك لي برغم جراحك

وآلامك، أدركت أنك لم تنطق بغير الصدق، فوددت لو أنك تركتني للموت عقاباً لي وندماً، فكلمات الدنيا كلها لا تغفر لي ما فعلت بك.

ونكست رأسها لتهرب من عينيه وهمست وهي لا تجد القدرة على مواجهته: إنني لم أشأ تسليم نفسي للشرطة والاعتراف بإطلاق الرصاص عليك، قبل أن أطمئن إلى شفائك لأرد لك بعض دينك.. والآن.. فهناك عمل يجب أن أقوم به للاعتراف بجريمتي، لأدفع ثمن كل ما فعلته بك.. وليتهم يسجنونني بقية عمري أو بعد موتي ليهدأ قلبي ويستريح ضميري.

احتضن أصابعها المرتجفة الباردة بين راحتيه العريضتين قائلاً:

ـ كأنك تصرين على الثأر من نفسك حتى النهاية.

قالت في صوت واهن معذب:

ـ لن تندمل جراح قلبي إلا إذا كف هذا القلب عن الخفقان.

طوقت عيناه ملامحها الحزينة وقال معاتباً:

ـ وهل تظنين أن جراحي ستهدأ بما تنوين القيام به؟

تطلعت إليه وقد تجسد حزن سنوات طويلة في عينيها.. ضغط كفيها في رقة. احتضنها بين أصابعه. همس يقول لها في صوت حنون: لقد امتزجت دماؤنا، وستمتزج حياتنا بعد الآن ولن يفرقنا شيء أبداً.. وسأعترف في محاضر الشرطة أن الرصاصة التي أصابتني هي رصاصة طائشة.

عضت شفتها السفلى في قسوة قائلة:

ـ أنا لا أستحق منك ذلك.

قال مشفقا عليها في ألم:

ـ كأنك تريدين مني عقابك ثمناً لحبك لي؟

وأدار وجهه بعيداً و هو يضيف: أنا أيضاً أخطأت نحوك بهروبي في الوقت الذي كان يتعين فيه أن أقف إلى جوارك مهما كانت قسوة العواصف والأعاصير.. وقد دفعت الثمن غالياً.. كل منا قد دفع الثمن بطريقته، كل منا تألم وتعذب.. ويكفينا ما نلناه من آلام.

انفجرت «قمر» في البكاء، وأحزنه مشهد عينيها الغارقتين في الدموع، مد يده يمسح دموعها وهو يقول لها: لن تكون في حياتنا دموع بعد الآن. سوف تكون حياتنا كلها بهجة

وأفراحاً.. سنعوض سنواتنا الضائعة ونبدأ من جديد. سأحقق لك حلمك الذي وعدتك به.. سأعود للدراسة مرة أخرى وأعدك أن أصير طبيباً أداوي جراح المساكين والمستضعفين وحاملي الهموم والأحزان.. سوف أكمل ما بدأناه من أحلام لأستكمل ما ضاع منا.. فهل ستشاركينني أحلامي وحياتي..

ارتجفت شفتاها بفرحة خجول.. همست وأحلام مفرحة تداعب خيالها..

- لقد وعدتك ألا أكون زوجة لرجل غيرك.. وها هي السنين قد أثبتت لك صدق وعدي.

تراقصت فرحة طاغية في عينيه فهتف يقول:

- إذن ما رأيك أن نتزوج حالما أغادر المستشفى.. وتأتين أنت وأمي لنعيش معاً في «القاهرة».

همست في ألم وحزن:

- ولكن..

تساءل في قلق وخوف من المجهول:

- ولكن ماذا؟

قالت في صوت كالنواح:

- «عمران».. أخي..

دق قلبه بعنف وتساءل:

- ما باله؟

أغرقت الدموع مقلتيها وهي تقول:

- لقد قبضت عليه الشرطة ليلة أول أمس.. وهم يوجهون له قائمة لا حصر لها بالتهم..

ربت «همَّام» فوق كفيها مطمئناً وهو يقول لها:

- سوف نقف إلى جواره.. سنثبت للشرطة أنه بريء من كل هذه التهم ونكشف الحقيقة وسنأتي له بأعظم المحامين للدفاع عنه، وسنقوم بعلاجه أيضاً من الإدمان، ولن نتخلى عنه أبداً. لن نتركه لقسوة الظروف والقدر ولن يكون ضحيتها.. سوف يشاركنا «عمران» كل أحلامنا وفرحتنا.

تهدج صوت «قمر» ونهنهت باكية وهي تقول له:

- ما أنبلك.

مد يدا حانية تمسح دموعها قائلاً:

ـ ما أعظم حبك أيضاً.. وما أغلى دموعك عندي.

تشبثت أصابعها بكفيه، كأنه الملاذ والملجأ وقالت:

ـ عدني.. عدني يا «همَّام» ألا تتركني مرة أخرى.. لا نبتعد عني لحظة واحدة بعد الآن.

طوقها بعينيه.. احتضنها بين جفنيه.. قال في رقة وصدق:

ـ أعدك يا «قمر».. فقد ولت أيام العذاب والألم والثأر.. وجاءت أيام الحب.

وتعانقت أصابعهما.. وارتسمت ابتسامة رقيقة فوق شفتي «قمر» اللتين عادتا للتورد واستعادتا لونهما السابق كأنما دبت فيهما الحياة مرة أخرى.

* * *

أيام الحب.. والثأر

سنوات طويلة قضاها «همّام» هارباً من الثأر.. تداهمه كل ليلة كوابيس الرصاص المنطلق إلى صدره.. وأشباح الموت.

وذات يوم يقرر أن يتحدى القدر والثأر ويذهب إلى قريته التي أهدرت دمه، تدفعه رغبة قاهرة لرؤية حبيبة القلب.

وهناك تنتظره الرصاصات القاتلة.. فكيف كانت نهاية أيام الحب والثأر؟

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان